قصاقيــص الهــوى

محمد قطب



قصاقيــص الهــوى

محمد قطب

* قصاقيص الهوى
* قصص: محمد قطب
* (355)
* لوحة الغلاف : داليا فايز على
* التدقيق اللغوى : عادل سميح
* الطبعة الأولى : ديسمبر ٢٠٠٤
* رقم الإيداع : ١٩٠٥٧ / ٢٠٠٤

* المراسلات: باسم سكرتير التحرير على العنوان التالى :
١٦ أ ش أمين سامى - قصر العينى القاهرة - رقم بريدى : ١١٥٦١

شركة الأمل للطباعة والنشر
ت : ٣٩٠٤٠٩٦

موجة ووردة

كان الليل فى أوله، والضوء ينساب فى خفوت ويصنع ظلالاً شاحبة، ولسعة الخريف تدعو إلى التماس الدفء فتنجذب الأجساد وتتماس. وشهدت مقاعد كورنيش النيل تداخلا يجلب حرارة غائبة وفرحًا بعيداً .

امتدت يد الفتى ومسك كف البنت وراحا يرنوان إلى همس النيل فتهامسا.. راوغا بائعة الورد، وتجاهلا نصْبة الشاى القريبة واستقبلا أنواراً مرتعشة من قوارب مارقة، وحملت الموجة - إليهما - انكسارات ضوء بارق ظل يلمع حتى خبا على الشاطئ .

والنيل يتخذ لونه الداكن فيكتسب بعضًا من المهابة وقدرًا من الجلال، وبدا لها كأنما ينصت لارتعاشات القلوب المبثوثة على المقاعد وحول الأسوار.. ويمسك - فى ليونة المساء - وهج العين وهى تستدعيه ليكون شاهداً.. ثم يغافلهم ويرسل موجه محملا بعطفه وبركته .

.. طال نهارهما وامتد .

قضياه فى التنزه بين الحدائق وأسوار الكبارى وصحبة الشباب .

فى الحديقة القريبة من النيل مالت البنت عليه وأراحت رأسها على كتفه، وناءت المقاعد ومساحات الخضرة بثقل الانفعال وسخونته، وشهد المكان انزواءات تثير الدهشة .

وعزف كل قلب لحنه المميز .

وعلت الألحان كأنها جوقة تعزف، وضاهت الأزهار وهى تبث خبيئتها وتبوح بعطرها .

والبنت وهى تتسمع رعشات جلده تعرف أنه يحبها، والولد وهو يجاهد أن يسمعها قلبه يعلم أنها تحبه. ويدركان معًا عجزهما عن حماية الحب وترويضه فى سكينة وبيت آمن .

شهد على حبهما الورد، والفل، وأوراق الشجر، الترمس، والدوم وورد النيل، حُفر الشوارع ومطلات الجسور ووجوه العابرين، أروقة الجامعة وعتمات السلالم، ومداخل البنايات ومصاعد البيوت .

وحلما أن يعيشا معًا .

.. أحدث اللنش دويا، فانتبها بعد غفوة على الموج يرسل صوته إليهما وهو يداعب الشاطئ.. ويغازل محبيه.

استلت البنت كفها من باطن يده، وتنهدت، فتوقف الموج.. أنفاس البنت حملت صهداً كالحريق كادت تحرقه فالتفت مبتسما وقال :

– لا تحملى هما .

وهمُّها أثقلها ..

ظلت تحمله سنين طوالاً وهى تجاهد حتى التحقت بالجامعة.. لم تكن تصدق أنها استطاعت أن تجتاز العائق وتتعلم.. وتختلف قليلا عن مثيلاتها من فتيات الحى الشعبى المفرط فى طقوسه وعاداته..

لكنها فعلتها وتعلمت ..

ظلت تسائل نفسها وماذا بعد..؟

عملت فى دور الحضانة، ودور المسنين.. وصبرت على المشاغبة.. والمراودة.. كان عملها متقطعا، لكنه إن جاء تمسكت به.. لتواجه به عوز الأسرة ومتطلبات العلم ..

وكما توأد الأحلام وأدت حلمها ..

.. والولد وحيد أمه، مات أبوه مبكرًا فكان ابنها وزوجها..

يعلم أنه إن أبدى رغبته، وذكر حلمه أمامها.. تموت ..

فى أمسية بعيدة كانا يشاهدان موقفا دراميا من فيلم شهير.. والولد اليافع يقف على السفينة ويحيط حبيبته بذراعيه، وقلبه، وعينيه الباكيتين.. ويستدعى الكون والموج الهائج ليشهدا على حبهما.. ويختما على حبهما بخاتم الحب.. قبل أن يطويهما الموج فى أعماقة .

وسط هذا الانفعال تمنى لو كانت له حبيبة بهذا الجمال، لكان قد هرب بها إلى آخر الدنيا بعيدًا عن الماء.. وغدر البحار .

ورمقته الأم خوفا، وارتعبت، وظلت تبكى طوال الليل وهى تردد فى حسرة: تريد أن تتركنى وتهرب معها ..

ولأنه تعود على مواقف مشابهة يقبل عليها ويظل يضاحكها حتى تهدأ.. ولا تهدأ إلا حين تسمعه يهمس فى حنو: أبيع الدنيا.. والبنات الجميلات من أجلك.. ثم تأخذه نوبة من الضحك، فلا هو قادر على فعلٍ كهذا، ولا هى

تستطيع أن تحقق له حلمه.. فلا المكان يسمح، ولا معاش الأب القليل يكفى لمثل تلك المسرات البعيدة.. ويكفيه أنه يتعلم بمشقة بالغة ..

* * *

عاودت البنت تنهيدتها وهى تتكئ على كتفه ..

وأعاد الولد - وهو يلم شعرها المتناثر - عبارته فى همسة دافئة :

- لا تحملى همًّا ..

لم ترفع رأسها ولم تنظر إليه.. وسافرت عيناها مع الأنوار الساقطة على ماء النيل .

- ومن سيحمله عنى ؟!

- ظهرى يتسع لنا .

نترت شعرها فجأة.. ثم ضحكا وتدافعا بالأيدى ..

مرت عليهما ريح باردة فتداخلا واستدفآ بحبهما ..

كانت الأيادى فى المقاعد المجاورة تمتد لتلتقط أكواب الشاى الساخنة؛ خجل.. فنادى على صاحبة «النصبة».. فأرسلت صبيا بكوبين ..

ابتسمت فى رضى لحاجتها إلى شراب ساخن .

والتوت شفتاها كأنها تتعجب.. وتلومه ..

فعلى امتداد الساعات شربا البارد، والساخن، وأكلا الفول والبطاطس البانيه وقرون الفلفل.. واقتسما الثمن ..

ناوشته فقالت: المرة القادمة على حسابى .

التوت شفتاه، وعكس وجهه غضباً، فسحبت عرضها.. وتضاحكا .

اقتربت بائعة الورد حتى كادت تقف على رأسيهما.. ورددت فى صوت منغم: مين يشترى الورد منى .

أخذ وردة بيضاء، ووضعها فى عروتها ..

فاحت رائحة الوردة، وضعت غيمة من العطر، دخلا فيها واستترا..

باح صوتها بأمل حقيقى .

– كأننا فى كوشة الفرح .

همس وهو ينقرها بعينيه :

– نحن فى كوشة الكورنيش .

نظرت إليه فى حدة حتى ظن بها خبلاً .

- يرضيك أن تكون ليلتى على قارعة الطريق ؟!

ضحك زاعقًا وهو يردد: قارعة ..

أخذ نفسا عميقا، واحتبسه ثم أخرجه ممطوطا له صفير.. فلم تعره انتباهًا وظلت صامتة .

تلفت واستدار فرأى الفنادق تضوى بالنور، وتبدى النيل جليلا فقال فى انتشاء :

- ليس أقل من شبرد ..

مد ذراعية وعب هواءً منعشا، ورسم قلبًا فى الفراغ وغرس فيه إصبعه .

- مثلك يا حبيبتى تزف فى فندق عريق كشبرد .

استدارت ورمقت المكان بنظرة رانية ..

رأت الفنادق، والمداخل الغارقة فى النور، وأمعنت فى الرؤية كأنها تراها لأول مرة، وقالت فى صوت متهدج يشى بانفعال طاغ :

- سميراميس يليق بى .

كتم دهشته، وابتسم متوددا، وكست وجهه مسحة استرضاء :

- شبرد.. مناسب لحالتنا .

ارتعب الولد وهى تنظر إليه ..

لمح العداء، والرفض، واحمر وجهها حتى كاد صهد الدم يلسعه ..

- قلت.. سميراميس يليق بى .

شدت جيبتها، وسوت شعرها ونهضت بغتة .

- أنت بخيل .

نزعت الوردة من عروتها وخطت نحو الشاطئ ورمت بها ..

وقبل أن تمضى التفتت إليه ممتعضة وقالت فى حدة :

- لا تتبعنى .

وبقى فى مقعده ساكنا ومبهوتًا .

وراحت عيناه ترقدان على النيل ..

شق قارب المسطحات المائية الماء فتماوج .

كانت الوردة تهتز مع الموج.. وتظهر.. وحين تغيب يحس بأن روحه تنسحب منه.. حين تظهر يرى وجه البنت موشومًا على وجهها ..

شدت عينيه تلك الوردات.. وهى تقاوم الموج كأنها تتحداها. رمى ببصره على المقاعد.. وراعه منظر الأولاد وهم يحدقون فى الماء.. فعاد يرنو إلى وردته مرتجف القلب .

.. وظل يتابع الموجة المارقة وهى تطوى فى قبضتها اللينة وردته الجميلة، كأنها تعصرها عصرًا حتى اختفت.. وتألم أن يكون للماء مثل هذه الكف القاسية .

البورصة

قابلتها فجأة فهلت طلتها، ورقصت غمازتاها، وفاضت عيناها بألق حقيقى كأنها ما توقعت أن ترانى وسط البلد فى ساعة الظهيرة .

بيضاء شاب لونها دكنة خفيفة، تميل إلى القصر، لكن جسدها ينبئ عن قوة. شعرها أسود وقصير، فلتت منه خصلة لامست جانباً من جبهتها العريضة .

لم أرها منذ فترة ..

كانت زميلة لى فى العمل ثم انتقلت إلى قسم آخر..

أراحت الزميلات.. وهدأت خواطرهن.. واسترحن لبعدها ..

شغل اهتمامها بنفسها ألسنة الكثيرين.. وكثر حضورها فى الحفلات والرحلات.. وظلت علاقتها بمديرها لغزاً.. فكم تمنت لو صحبها فى سفراته الخارجية.. مثلما يحدث لغيرها ..

بادرتني قائلةً: إلى أين ؟

- أتسكع.. وأنت ؟

رمقتني خلسة وهي ترفع رأسها ناحية بناية عالية.

- كنت في بورصة الأوراق المالية .

فغرت فمي قصداً؛ لتصل لها حالة الدهشة والشك، وهنأتها بالغنى الطارئ.. لكنها أدركت نيتي فطالبتني بالبعد عن التهكم وأن أنسى أنها كانت زميلة أتباسط معها في القول، وأننا كبرنا على اصطياد الخطأ.. وهراء الحديث .

ومضت تحكي دون أن أطلب منها، كأنما تقدم تقريراً عن مشوارها.. في صباح اليوم اتصل بها زميل لها وطلب منها أن تذهب إلى البورصة لمعرفة الأسعار الجديدة للأوراق والأسهم، ونبه عليها في قوة أن تقدم طلبا بتفويضه ليتحرك في حرية نيابة عنها في حالة ارتفاع الأسعار .

كانت تحكي وأنا أغوص في عينيها أبحث عن درجة الصدق.. وبؤبؤ عينها الأسود الغامق يغافلني ويهرب،

ويترك للبياض المحتقن أن يتلقى نظراتى الحادة .

لا تحب أن يصلها أننى أعلم أنها لا تملك أوراقًا مالية ولا حسابًا فى بنك.. وربما ذهبت لمجرد لقاء ..

أسرعت قائلاً كأن أحدًا يدفعنى :

– ألم تتزوجى ؟

ضيقت عينيها واختلطت البسمة بتجعيدة الدهشة .

– فى هذه السن ؟!

– هى سن النضج .

طوحت بحقيبتها، وسوت خصلة شعرها النافرة وتطلعت إلى البناية العالية ثم رنت فى ضعف .

– لا تسخر منى.. ابنى فى سن الزواج .

حان الوقت – وأنا ألمح البريق فى العين، والرجفة فى الشفة – أن أتجاسر .

– من يراك لا يصدق أنك أنجبت !

هزها فرح وراح يفيض عليها ..

وانطلق لسانها ..

* * *

كانت – وهى صغيرة – جميلة جمالاً يأسر العين.. وكانت تكتفى به، يسعدها أن تكون حلما من أحلام الشباب، بل إنها تصدقت فزارت الكهول فى أحلامهم.. وأسعدتهم.. وامتلأ جسدها بحيوية تكاد تسيل على أعضائها كما يسيل الشهد من تفاح ناضج.. حتى خشى الأب عليها فشدد الرقابة ..

تُغشِّيها نشوة الحياة وتدعوها إلى أن تقطف البهجة وتعبئ فى صدرها الفرحة.. حتى ظنوا بها الظنون .

توقفت فجأة وحدقت فىَّ ..

– أنا لا أعرض نفسى.. إنما أقدرها .

مدت يدها وقبضت على كفى وشدتنى صوب الرصيف، واتكأت على ذراعى وهى تعتليه، ومالت بجسدها فى حركة توازن مقصودة.. واستمرت فى حديثها ..

مات زوجها مبكرًا فطال حرمانها، ونذرت نفسها من أجل ولدها الوحيد، كتمت مشاعرها، وجمعتها، ودفنتها فى قبو غويط..

كنت أستمع إليها وأرى انفلاتات العين تسيل برغائب محتجزة وكلماتها تشى بتهدج فى الصوت، وبدا الحزن متشحا بظلال من المسكنة .

صاحبتنى فى سيارتى.. عرضت عليها توصيلها فلم تعترض، وأبدت إعجابها بلون السيارة.. الخضرة تريح النفس ..

وشت جلستها بوهن نفسى استغرقها حتى كادت تذهل عن وجودى.. أطلقتُ النفير فارتجفتْ وبدت كأنما خرجت من بئر عميقة .

سألتها عن ذهولها الذى بدا غريباً فقالت :

– الوحدة قاسية .

– الوحدة.. وابنك معك !

– لا أراه بالأيام.. يأخذه أصحابه ويرتحلون كثيراً .

سهمت عيناها والطريق ينطوى أمامها فى بطء .

* * *

.. أجلس بمفردى بعد العشاء، أشاهد برامج التلفزيون وأتابع المسلسلات وأشارك فى أرقام البرامج..

أحب أن أسمع صوتى.. وحين يعلنون عن اسمى أشعر بزهو حقيقى ثم أروح فى نوبة بكاء ..

يظل النوم حائمًا حولى ثم يحط ثقيلاً فأشعر بخواء شديد وأجر جسدى ورائى إلى السرير.. وقد أنام على المقعد فى صالة البيت .

أصابنى حديثها بالعدوى فقلت :

– الفراغ طويل.. والنفس عازفة عن البهجة .

رنوت إليها طويلا.. وهى تحذرنى من الطريق وتدير رأسى بإصبعها الرهيف..

– ما رأيك..! لو فعلناها..!

لمحت ظل ابتسامة ترتسم ..

وأدركت أنها فهمت المعنى.. وتجاهلت .. عقدت حاجبيها وقالت :

– ما الذى نفعله ؟!

ركزتُ بصرى عليها وهى لا تكف عن لفت انتباهى إلى الطريق.. رصدت اهتزازات جسدها، وتقلص وجهها وتهويمة عينها .

- نتزوج !

استدارت حتى رأيت نصف وجهها فى المرآة ..

- تريد أن تتزوجنى ؟!

- بل أريد أن تتزوجينى .

- أهناك فرق ؟

صمتُّ قليلا، وسكنت هى منتظرة .

- رغبتك فى الزواج.. أشعر بها.. أنا أولى بك .

ضحكت وجاء ضحكها خاليًا من الفرح ثم غشيتها سكينة .

- أتطمع فى أوراقى المالية ؟

ظللت رانيا إليها ولم أتكلم ..

استطردت وتحدثت فى جدية بالغة .

- أفضل أن تكون لديك أوراق مالية .

كثر كلامها.. وزاد.. عن سوق المال، وأسعار البورصة، والربح الذى يأتى من ضربة حظ واعية بأسرار اللعبة.. وأنها قادرة على كسب ود صديقها فى البورصة فيزداد الرصيد وينمو ثم تشترى عددًا آخر من الأوراق

فيكون لنا مورد مالى ملحوظ .

لاحظت الوهج الذى يطل من عينيها، وكأنما نشوة حسية عميقة قد دخلت فيها وسكنت .

– ماذا أفعل بولدى.. هل أزوجه ؟

– أفضل ذلك .

– إذن تكليف الزواج تخصم من أوراقك المالية .

– لكننى لست والده ..

– لكنك زوج أمه .

هززت رأسى كالموافق فابتسمت واستراحت، ومدت ساقيها قليلا، وداعبت بأصابعها حزام المقعد، وأحكمت وضعه وسط الصدر تماما فلاح الصدر نافرًا وبازغًا.. ثم تنهدت فى عمق ومالت علىَّ قائلة ..

– متى يتم الزواج ؟

– حين أشترى الأوراق المالية ..

– أوليس لديك ..

– لا ..

نظرتنى فى استخفاف كالإهانة .

قلت استنهض فيها حسًا جميلا :

- لا دوام للمال .

قالت فى صوت نافذ: ولا للقوة .

تغيرت سحنتها، واربدَّ وجهها وتقلص ..

أمرتنى بقوة أن أقف لتنزل ..

صــفــعت باب الســيــارة بقــوة وهى ترمــينى بشــرر كاللظى.. وسمعتها تقول بصوت وصلنى وآلمنى ..

- ماذا تساوى فى سوق البورصة .!

الـــولىّ

كانت البنت حلوة، وجهها كرغوة الحليب، وشعرها كعتمة الليل ينسدل فيغطى الكتف ويفيض .

حين أطلت فى المرآة رأته.. يسد الباب بجسمه ويضوى وجهه باللهفة. رقص قلبها وتورد الخد، وأفرغ الهوى كأسه. واستدارت .

ألقت بغلالة خفيفة رقيقة النسج على الوجه والنحر.. لاحت العينان تضيئان بالبهجة، والحاجبان يرفان فى رجفة رهيفة وران على الجسد سكون كالذهول ..

* * *

لم يعجز عن الوصول.. كان إذا أراد فعل ..

كانت نجمته تبعث بضوئها فيهتدى. يسلك الدرب الواطئ، ويعتلى السور ويقفز. يجدها أمامه كأنها تنتظر لحظة مقدمه.. تهتدى بأنفاسه المعطرة تحملها الريح إليها فتتأهب للقاء ..

هذه المرة طالت غيبته، وفاجأتها عودته المباغتة ..

لم ينس أن العائلة رفضته، وأنها رأت فى مهنته عيبا يجرحها..

أحكموا حصار البنت، وأدخلوها فى نفق معتم.. وملأوا الرأس بالجاه والمنزلة، وضنوا بها عليه، كيف تتزوج جزارًا وترفض مهندسًا للبناء! كيف تقبل على الغريب، وتنأى عن القريب!! أى عرف يسمح بهذا ؟!

* * *

أخذتهما الأيام، والأقمار، والنجوم ..

طافا سموات الهوى ولم يرتويا ..

ثم راح حاجز العائلة يعلو.. ويعلو حتى يئس .

* * *

ابتسمت فى حياء.. ورمقته فى حنو كالعتاب.. فكثيرا ما انتظرته وصاحبت من أجله الليل والنجوم .

قال فى شوق: لم أتحمل غيابك.. فجئت .

لملمت فرحتها وهى تفيض حتى تكاد تغرقها .

– ابتعدت زمانًا .

انسكب البهاء عليَّه فتجلى وجهه بهيا .

– خفت عليك.. فقاومت .

– رفضت ابن العم.. وانتظرتك .

قبَّل أناملها، وسكب فرحته نوراً يتجلى من شفتيه وهو ينطق باسمها .

– لا أشك فى حبك ..

وغمغم فى صوت مرتجف: أبتعد من أجلك.. أخاف عليك هوس العائلة .

– وارتجف البدن خوفا – أموت لو أصابك أذى منهم.

– أنت سيدى .

– وأنت أميرتى .

وقبل أن يمضى غامت عيناه والتوى القلب وقال كأنما يستجدى :

– ألن يتغير القلب .

شهقت: أموت حينئذ ..

* * *

حطت عيناه على «أنثى» جديدة... وبقى القلب مأسوراً

بحب الحبيبة، ومضى كما مضى السابقون .

لبست النساء والرجال والأطفال الملابس الجديدة وتوافدوا على ساحة العارف بالله. تناثرت الخيام. والسرادقات، وأحالت الأضواء الساحة إلى قطعة من النهار.. وبدأت الأغانى تتردد عبر منشدى الربابة، والسير، والحب الإلهى !

اجتمعت فى تلك الليلة فرحتان .. .

فرحة إحياء ذكرى العارف بالله، وفرحة زفاف الفتى مهيوب .

ولأنه يعمل بالجزارة فقد مد السماط، وتراصت اللحوم على صوانى الأرز بالزبيب والحبهان .

أثناء الصخب فى المولد، واختلاط الغناء بالرقص، وقبل أن يطوى المأذون منديله، جاءته الومضة خاطفة كالبرق. والوجه الجميل يبتسم، ويناديه .

حورية الليل تنتظره .

تعجب أن تداهمه حبيبته فى ليلة زفافه ويسمع نداءها وسط صخب المريدين وابتهالاتهم.. فيتوقف قلبه وييمم شطرها ..

هى التى اختارت، حين وقعت تحت إمرة العائلة. خيروها بين الوأد والمهندس، رفضت طويلا.. ثم رضخت.

يعمل بالديوان، وعليها أن تحيا معه، رضيت أو أبت.. لماذا تزاحمه إذن ؟

حاول أن ينحى الخاطر، أو يتجاهل الوجه المزاحم.. فعجز.. قام ودار، دخل وخرج، رقص وسكن.. وهى لابدة فى خاطره، مارقة كالضوء الثاقب.. يشده ويجذبه .

وحين مضى إلى زوجته التى لم يدخل بها رآه مفرودًا على وجهها فاستدار مرعوبًا .

أتدعوه فى ليلة فرحه؟! وعروسه تتجهز له !

كيف يتركها ليمضى إليها.. وهى التى رفضته، وأذعنت لأهلها ؟

تكاد تعشى بصره فلا يرى، ترسل ومضاتها فترجفه، تسلط عليها حبها فتأسره، تمد هدبها إليه فيستظل ..

بدا قلقا، وخائفًا، وراح يستنفر داخله.. فلن يقع تحت سطوة البريق ولن يستسلم للمناوشة.. ستظل تشاغله ولو كان فى حضن امرأة أخرى .

حين دق الباب دقته التى اعتادت عليها وجدها أمامه كأنها تنتظر. تصلب جسده، ورجفة انفعال تأخذه، وعينه تقف على رموش عينيها .

– أكنت تتوقعين مجيئى ؟

– لم يخب ظنى فيك .

– لكنك سلطت روحك على !

تراقص الحاجبان، وانفرجت شفتاها عن بسمة محبة.

– وحشتنى .

كاد يحتد ويفلت لسانه بالغضب .

– لكنها ليلتى !

رمقته وهى تدفع به إلى الداخل وتغلق الباب .

– تيقنت أنك لن تنسانى فى ليلتك .

– تعلمين أننى أذكرك دومًا .

– لهذا أرسلتُنى إليك !

ألزمه بريق عينيها صمتًا ما كان يبتغيه. وشعر بخدر يشمله وهو يتلقى الضوء الراعش منه .

– لن تأخذك.. قبل أن آخذك .

كان الأمر محكما، فاحتبسته حتى أذان الديكة .

.. بعد أن أطلقته، أحس ببدنه يغادره.. وبقلبه يسقط منه وبيهجة اللذه تخبو، وتحترق .

كانت نظرة امرأته كشفرة تستأصل أعضاءه ..

وكان عجبه مما يحدث له فوق التصور.. حتى طال الأمر ..

أبدت امرأته مفاتنها، ونوَّعت عروضها.. وازينت.. وتهيأت.. ثم ملت وانصرفت إلى أهلها .

أين البهجة، ودفء النشوة التى ما انطفأت يومًا!..

أين الولع الذى كان يسيل من عينيه كما يسيل الضوء من مصدره !

ما باله أضحى كخرقة مهلهلة، تفتت نسيجها وتراخى!

لماذا تلجأ البنت إلى كل هذا الكيد.. لماذا ؟

لقد حددت مساره وانتهى الأمر ..

هرول راكضًا كالمهووس.. تردد على المشايخ، والعرافين، وطاردى الأرواح الشريرة.. دخل المقابر، ونام فى الخلاء.. شرب الندى فى انبلاج الفجر، أراق دم

الذئب وولغ فى كبده.. وازداد سوءًا ..

داهمه الأمر، فأدرك أنه افتقد القيمة، وأضحى عاريا ومفضوحا. خاضت الألسنة فيه، وتجرأت النسوة فشاغلنه فى اطمئنان..

أيستطيع أن يعيد ما ضاع ؟

أيهتدى إلى نفخة الروح فى جسده الميت !

* * *

غامت السماء، وحجبت الغيمة الداكنة وجه حبيبته .

عندها يطرح الهم ويستعيد البهجة ..

اندفع فى غضب جائح، وترصد الليل حتى المنتصف.. وتسلق الشجر، ومال مع الفروع حتى سقط فوق السطح.

راعته اللبلابة بفروعها التى تمددت ورمت بأوراقها وزغبها على أعواد الحطب والقطن الجاف حتى تشكلت خميلة. راودته نفسه أن يلجها.. لكنه خاف من حشرات الليل ..

استدعى حماسًا غائبًا فأقدم. خلف هذه العيدان كانت تواعده، كان العود الجاف يتحول – فى يدها – إلى ساقٍ رطبة، ينبت فيه النوار والزنابق ..

حين اقترب وجد النوار يتفتح، والفروع رطبة - فى الحقيقة - تنز منها قطرات بيضاء كالحليب .

استمع إلى خطوات رتيبة تصعد درجات السلم.. فجفل ..

اختبأ.. كتم أنفاسه. تدثر بالورق، وتداخل حتى كاد يصبح عصارة فى ساق رطبة .

وأطل برأسه ..

شاهد البنت عارية، ينعكس ضوء القمر عليها ويصنع بهاءه عبر التخوم، شهق واحتال على قلبه ليهدأ.. صبره فاصطبر .

لمت شعرها، ومدت يدها، وقطفت نوارة.. سالت القطرات وامتلأت الكأس. اتخذت من اللبلابة متكأً ومضجعا.. وراحت تريق على الجسد ماء الحياة المكتنز فى مسارب الورق ..

ولمع الجسد فحاكى غبشة الفجر .

ضحكت للقمر ونهضت، أحكمت ذراعيها فوق صدرها، ولاح ظهرها عاريًا.. أدهشه أن يرى الوجه مرسومًا عليه. مصوراً بتفصيلاته، حتى الشعر النابت فى جانبى الوجه له نفس الهيئة ..

وضع يده على وجهه وتحسس الشعر، والفم والوجه. دعته عيناه، وحادثته شفتاه، وراحت أسنانه تقبض على زنبقة ..

واختلس النظر وأمعن. وهى تفرد أصابعها، وتتحسسه، تداعبه وتحادثه، تهدهده وتقول له: دعنى أدفئك، وأرسلت شعرها فسترت الوجه واستدفأ .

خارت قواه.. وظل يتسحب .

أحس أن عظامه نتأت وأضحى هيكلا .

ظل يتسحب وهيكله يصدر أصواتًا «كالشخللة» ووجهه ريان على ظهرها.. تكأكأ ثم سقط. مدت الأغصان أوراقها إليه وجدلت حوله جديلة خضراء .

* * *

فى الصباح شاهد الناس هيكلا عظميًا ناتئًا معلقًا بين مخالب اللبلاب. استخلصوه وحفروا له قبرًا.. نبتت على قبره لبلابة، حتى صنعت خميلة.. اتخذتها البنت سكنا، ثم راحت ترتب لإحياء ذكرى حبيبها الجزار الذى بدت بركته وهو يتجلى على ظهرها لحظة انسحاب الليل وانبلاج الصباح ..

ترميم القلـــب

دلفت المرأة الجميلة إلى درب صغير ملتو، كانت قبل أن تمرق قد تأكدت من اسم الصيدلية التى على الناصية، ومن لافتة المحامى فى قضايا التعويض. هبت من جسدها رائحة ميزتها الأنوف المدربة فالتوت الرءوس وصوبت العيون نظراتها إلى الجسد المشوق.

نبهتها صديقتها إلى ضرورة الذهاب، وأعطتها العنوان. وأكدت أن معاناتها ستجد لها حلا. فقط عليها أن تذهب إلى الطبيب المتخصص فى نهاية شارع فيصل.. وراحت تسترجع غمزة العين وبسمة الوجه المدهوش، والثناء على الطبيب، ولمسات الأصابع على وجهها، والعبارة الهامسة.

-إنه يصلح القلب ويرمم عطبه .

وتزغدها فى رقة، وتضحك .

أمالت رأسها ورمقت مداخل البيوت. تأكدت من

المدخل المطلوب وخطت خطوات قليلة، لامت نفسـهـا أن وافقت على المجىء، كـان عليـهـا أن تبـحث عن آخـر فى مكان راق قليلا.. فالعيون المحدقة تخترق النفس وتربك الجسد، والأعناق الملتوية تتلصص، والوجوه التى تطل عليها غريبة، لا تهتدى إلى سمة محددة لها.

يشـغلها هذا الدبيب الذى يفُطُّ من صدرها، ويجعلها تضع اليد فى وجل على موضع القلب الذى لم تعد تنتظم دقاته. تظل هادئة كلما نأى عنها وابتعد، إلى أن تستعيد صورته وفعله المنهك. يرتجف الجسد وتتسارع دقات القلب.. فترتعب .

تتلقى الوجع، وتخشى من نبضات القلب غير المنتظمة، والتنميل الذى يسرى بالجسد ويخدره .

حين ألقت بهمها إلى صديقتها أخذتها من يدها إلى الشرفة. أطلا معا إلى العشب المزدهى بقطرات الماء، والزهور النابتة فى أركان الحديقة الصغيرة وقالت فى تلذذ :

– لو منعت عنه الماء لجف.

وضحكت، ورنت فى تمعن إليها .

– وهكذا نحن .

لزمت الصمت، ورمقت اللبلابة الصغيرة وهى تتلوى وتتشابك، وتعافر، وتطب الحياة ..

واجهتها اللافتة فولجت الباب؛ لم تجد أحداً فتوجست. عادت وتأملت الاسم والتخصص وضغطت على الجرس. بعد برهة وجدته أمامها .

كان وجهه صبوحًا ومفروشًا ببسمة ندية.. تتدلى السماعة من عنقه وجسمه ممتلئ قليلا. أعطته عمراً فوق الأربعين وتعجبت: كيف يبدو الأطباء فى صورة حسنة بالرغم من تقدمهم فى العمر !

حياها .. ودخلت معه حجرة الكشف .

أراحت يدها على فخذيها فلاح البطن ضامراً، والصدر نافراً، وراحت تحادثه وهو يخالسها النظر ويسجل في ورقة أمامه ..

.. ينفضنى قلبى نفضًا، يوقظنى من عميق النوم على دقاته الصاخبة. لا يريد لى راحة، ولا يكف عن الصخب .

حدق فيها وابتسم، وهز رأسه .

يسرع كأن أحداً يلاحقه، ويتركنى ألهث وراءه، وفجأة يتوقف فيسحب روحى معه، ولا أسمع له دقا وهو الذى لا يكف ليلا ونهاراً.. حتى إننى أخشى أن أقع على الأرض ميتة .

ونظرت إليه. لمحت بسمة تروح وتجىء على وجهه، ونظرة غير ممعنة تبنئ عن شرود طازئ .

– والله لا يهنأ لى بال .

أخذته رجفة لعلو الصوت وحدته فأرخى عينه عليها .

– يخاصمنى ويعاندنى ولا يريحنى.. حتى إننى لا أهنأ بطعام .

ظل يتابعها ويتوقف عند تقلصات الوجه التى لا تبين. وأحسست أنه يتأملها، وأنه مهتم بحديثها، وما إطباقة الجفن إلا محاولة للتركيز الاستيعاب .

– تصور!! إننى لا أهنأ بطعام حين تمتلئ معدتى أخشى عليه منها، فأتقايأ، إنه يتربص بى .

تساءل فى تعجب مباغت :

– من يتربص بك ؟

رنت فى إغفاءة من يخرج من نعاس خفيف :

- قلبى .

وتأملها بقوة، وعينه تنفذ إليها .

- إنه يحبك .

أزاحت خصلة من شعرها المنسدل على الصدر، وهمست فى صوت مندهش يكاد لا يبين ..

- من ؟

- قلبك .

وضحكا معًا. نهض وأشار إلى سرير الكشف ..

وتمددت على السرير.. فكت أزرار قميصها الوردى المشجر ومد أصابعه وضغط. نقر بإصبعه على الصدر، ستر النهد المنفلت ووضع السماعة على الجلد، وراح يمعن فى الانتباه، كأنما يقتنص نبضًا شاردًا. بدل مواضع السماعة وظل على حالة من الانتباه.. صادت عيناها إيحاءات قليلة من حركة الرأس حين وضع يده أسفل الصدر باتجاه المعدة كادت تشهق فخفف الضغط، إدارها على جانبها وتسمَّع.. مسك الرسغ وقاس النبض، كور السماعة، وبدأ يقيس لها الضغط .

أنهى عمله وعاد إلى مكتبه .

نهضت وأطلت على هيئتها فى مرآة جانبية فغمرها فرح طارئ وهى ترى طلتها الجميلة مشربة بحمرة خفيفة.

جلست فى مواجهته تتطلع إليه تستحثه أن ينطق وأن يرأف بها.. نظر إليها وهو ينتقى لفظه .

- قلبك سليم عضويا ..

انتظر أن تعلق ففضلت الصمت والترقب .

- فى الحقيقة لم أهتد إلى علة.. فنبضك طبيعى وضغطك فى المعدل القياسى .

.. وترنو إليه فى إمعان. وتتملى وجهه، وقلمه الجاف الرخيص، ولحيته النابتة، وقميصه المفتوح، وشعره غير المرجل، ومكتبه الصغير صدئ الأركان. وتساءلت فى عجب: كيف لطبيب أن ينسى نفسه هكذا !!

وتمتمت فى خفوت

- أمره عجيب .

خرج صوتها مغموساً فى دهشة حقيقية فتنبه الطبيب،

وخشى أن يكون أقلقها بصمته فقال :

– لعل التوتر والقلق هما السبب ..

– أتوتر كثيرًا .

– إذن هو عطب نفسى، وليس عضويا .

ورمق كفها المستريح على الفخذ، والخاتم الذهبى الذى يحيط بالإصبع وقال فى صوت متسائل :

– متزوجة !

أسندت رأسها إلى كفها وتنهدت .

– زواج كأنه لا زواج !

ولزم الطبيب الصمت، لم يأبه لدقات خافتة على الباب، كوم السماعة وراح يؤرجح القلم بين إصبعيه.. ونظر إليها فى تمعن .

وراحت تتحدث عن زوجها.. الذى فضلته على غيره. بنى العش الجميل الذى حلمت به.. وجهزه بكل ما يخطر على البال. ولم ينس «الدِّش». منت نفسها بحياة طيبة تعوض سنواتها التى طالت قليلا فى الحرمان.. وستنهل من نهر السعادة ما يحلو لها، وتتفتح مسامها على زخات

تبللها وتنعش حسها .

وبعد الأسبوع الأول ظهرت علته .

غمرها خجل حقيقى فصمتت. حين رفعت عينها إليه شعرت به يستحثها على الحديث، يود أن تكمل.. صاحبتها بسمته فخففت من حيائها.. أزاحت خصلة من شعرها، تهيأت للقول، فتألق العنق وخطف البصر.

– صبرت كثيرًا، وباءت المحاولات بالفشل حتى أصابنى الكمد .

أدارت وجهها وصوبت بصرها إلى نافذة صغيرة، وخرج صوتها مرعوشًا كأنها تسلخه من لسانها :

– كان يقضى وقته يشاهد الأفلام الجريئة حتى قمت بتخريبه ..

ونظرت إليه، عله يكون قد أدرك المعنى لكنه تساءل:

– لماذا ؟

– ما فائدة الرؤية مادام يجهدنى بلا طائل ؟!

نطقت العبارة دفعة واحدة كأنها تود أن تتخلص من العبء الذى يضغط عليها فتستريح ..

وسكتت ..

كان صمتها كالإبرة الكاوية ..

نهض وأخرج من ثلاجة صغيرة علبة من عصير التفاح.. وراح يحدثها عن حاجة الجسد إلى الإشباع كحاجة النفس تماما، وأن إشباعهما معًا يحقق التوازن المطلوب، والخلل فى هذا الانسجام يسبب التوتر، والعلل النفسية، والبدنية. وتزداد الحالة سوءاً بمرور الزمن والخلل فى ضربات القلب أحد الأعراض.. إنه علة للنفس المريضة .

– ما عمر زواجكما ؟

فاجأها السؤال.. فتنهدت حتى كادت التنهيدة تحدث صفيرًا ممطوطًا .

– خمس سنوات .

حدق فى إمعان، واستراح بصره على خلجات الوجه المرتجفة ..

– حرمان طويل.. لا تستحقينه .

– هل تريحنى.. هل هناك أمل .

- الأمل موجود وسنرى .

ابتسمت، وطالت بسمته وتمددت حتى فرشت الوجه كله.. حين أنهت رشفتها الأخيرة، هب واقفا.. فنهضت.. قدم لها «بطاقة التعريف».. مسحتها بعين مدربة ودستها فى صدرها. مدت يدها، فضغط على الكف الذى أحس فيه برجفة حقيقية. قال وهو يحتضن الكف :

- عادة أكون فى البيت بعد العاشرة .

لم يفته الوهج الذى كان يطل من عينها، ونظرة الامتنان التى لا تخفى عليه .

سحبت كفها، ومرقت. ارتخى جفنها قليلا، واحتقنت العين.. لم تتنبه فى اندفاعتها لعين المريضة المنتظرة وهى تتجول فوق جسدها، وتبتسم .

رجفة مباغتـــة

لم تكن تدرى أن ما حدث لها أمر فاق الخيال، غضبت الأرض - فجأة - واهتزت فى رجفة مباغتة. هالتها رعشة الجدران حتى تكاد تسمع صكتها.. وطاولة الطعام وهى تنزلق فترتطم بالمقاعد. كانت تروح وتعود مع الحركة. قدماها لاصقتان وجسدها يتأرجح. وضعت يدها فوق صدرها وهى تحدق فى النجفة خشية أن تسقط. تتلقى «شخللة» اللمبات الصغيرة فى خوف شد وجهها .

نزعت قدميها، وتعثرت فى المقاعد ..

بدا الأمر مرعبا ..

.. أهى النهاية؟ أتموت وحيدة لا أنيس، ولا جليس؟ أكتب عليها أن تعانى حتى فى ميتتها المفاجئة ؟..

شدت النافذة عينيها، والخشب يصطفق فى قوة ويكاد ينفصل عن المصراع .

.. أتفتح الباب وترمى بنفسها على الدرج؟.. لكن

الدرج أضعف الأماكن !

هل تغامر فتقتحم الشرفة! الشارع ممتلئ بالخائفين والبيوت أخرجت ساكنيها.. وستمتد إليها الأيدى.. سيقولون بنظراتهم.. وحيدة!! لا أحد تأتنس به.. سترى شماتة محاطة بخوف بشرى..

وهى تقرر انعطافة سريعة، جذب «سيراميك» الصالة قدميها وأغرقهما فى البرودة، الهلع يرتطم بالشرفة ويتسلل صراخًا وعويلاً.. وابتهالات .

ما الذى يحدث لها، أغضب المكان فلم يدعها تمضى؟ أم أنه يؤثرها فتمكن منها؟ ألا يرفق بها ويتذكر كيف أجهدت نفسها من أجل أن يبقى بهيًا طليًا؟ ألم تدفئه المشاعر يومًا فيسبغ عليها دفئًا ورحمة ترتجيهما؟

أثقال ضخمة معلقة بساقيها تمنعها من الحركة..

أتموت واقفة ؟!

الصورة المعلقة بصدر الصالة سقطت وتهشم الزجاج، انطوت الورقة فلاح الوجه مجعدا .

لا تقوى على التقاط الصورة، تمنت لو سوت الورقة

وعدلت طيتها..

تقبع بجوار قدمها .. أيشعر الوجه بعرق الخوف وهو يتسرب إليها من باطن الأرض ؟

قسمت التجعيدة حدود الفم فجارت على الشفة السفلى ودنت من فتحة العين فأخذت اتساعها وضاقت النظرة حتى بدت لها كعين الذئب .

لمثل هذا نذرت نفسها !

* * *

.. طال الجدال، والخصام.. ولم ترحب العائلة..

أختها.. كانت تصوب إصبعها كأنها تود خرق عينها:

– تتزوجين رجلاً بعائلة !

أدار أخوها وجهه فى انفعال داهم .

– يكبرك بعشرين عامًا .

اقتربت الأخت وفرشت «صوابعها». مسحت على شعرها فى تودد :

– يرضيك أن تخطفى رجلاً من امرأته ..!

وضع الأخ يده على كتفها معاتبًا .

- هل ربيناك على ظلم الآخرين ؟

كانت تواجههم بالصمت، وببسمة ترفُّ على الوجه وتبقى .

وكان هو يطل عليها ببهائه، وألق عينيه.. يمد يده إليها، يؤازرها فى حصار العائلة ..

غامت عيناها، وطال غيابها ..

نغزها أخوها فى صدرها حتى آلمها .

- لقد اخترتِ ..

قذفها فى عنف وهو يجر أخته من يدها .

- لا تعودى لنا نادمة .

* * *

أكانوا على حق !

ترى أين هو الآن؟ ذاك يومه.. فلم غاب عنها؟

أيدرك حالها؟ أيأتى ليسعفها وينقذها!! ما له لم يتلهف عليها ويتصل بها !

لم رضيت بوضعها المهين هذا؟ وارتضت أن تحيا فى الظل! الأخرى تتمتع به، وتزهو أمام الناس.. «وأنت بمن

تزهين».. غيمة الدمع تنهل ..

أهو فى البيت.. أم جاءه الأمر فى العمل.. أو فى الشارع !

تراءى لها السقف أفقًا مفتوحًا، وحواجز الطوابق طويت فى قبضة قاهرة. غربل الهواء وراح يلف المكان ويحيط بالجسد.. برودة شديدة تحتويها ..

من أين تأتى؟ النوافذ المفتوحة، أم الشروخ البادية!! كانت تراوغ جسدها.. تستدعى قوة تفر منها، تغمض العين وتفتحها، تشد الجفن، وتبعد الهدب، وتمد اليد، تعافر وتكد.. عليها أن تصل إلى التليفون.. لعلها تجده، فيهرع – خائفًا – لينقذها، بل سيهرول مسعفًا إياها.. سيترك الجميع لتلوذ به.. وسيظل يركض حتى يأتى فيأخذها بين ذراعيه، يعيد إليها دفئًا سلبته رجفة مباغتة.

* * *

حين تحتاجه لا تجده. لم يصحبها يومًا لطبيب، كان يختار الأماكن شحيحة الضوء.. كأنه يخجل منها ..

تلك هى اللحظة التى تشعر بحاجتها إليه.. كم ارتاح

على صدرها، أنسته همومه بين أحضانها. ندَّت وجهه برضاب كالعسل، لملمت مشاعرها فى باقة حمراء وأودعتها عروته ..

.. أكان يراوغها وهو يحلف بحياة أمه أنه ما وجد أمانًا قبل أن يعرفها!! أكان صادقًا وهو يلفها بذراعيه ويهمس لها: «لولاك لسقطتُ فى الطريق» .

أين هو إذن لينتشلها من سقطتها !!

لطالما حذرها الأهل ..

خاصمتها أختها إن لم تحقق الهدف من الارتباط.. «لابد أن يعيش معك.. وتحت عينيك، وبين ذراعيك.. إن احتجته وجدته..» .

وها هو ناءٍ عنها .

* * *

أصدرت صيحة وباحت بتنهيدة حارة ..

ها هو التليفون قابع تحت طاولة الطعام ..

مدى يدك، ابسطى كفك، اقبضنى على السماعة.. انزعيها.. هكذا.. نعم كيف واتتها القوة وجسدها يتداعى

وينكفئ وينطرح.. سحبت السماعة فى رجفة موصولة.. أحكمت وضعها على الأذن. لم تعقها الرعشة التى تأخذها..

حركت إصبعها.. ضغطت الأرقام.. الصوت يأتى من بعيد.. خافت وحزين.. خطفت أنفاسها.. صدرها يتهدج.. سينقذها من الهوة التى سقط فيها.. لفظت اسمه بالكاد..

لاح على الوجه همود حقيقى وشاعت صفرة باهتة أغطشت وجهها فبدا رماديا. غشيتها البرودة، وانفلتت السماعة.. وأزَّ صوت يدعوها إلى وضعها مرة أخرى.. وراحت تجمع فخذيها إلى صدرها ..

خالته يمد يده إليها.. عيناه تستجديانها، كأنه يطلب المعاونة جاهدت أن تمد يدها لتستخلصه من سفرته الأخيرة ..

كان يبتعد، طواه أفق رمادى معتم، مفتوح على مدى غامض وشفيف ..

جاهدت انطباقة العين، وسرقت نظرة عابرة.. كان يبتعد..

اختطفه الطائر الوحشى بأجنحته الهائلة.. وحلق به بعيدًا..

ولج به إلى المدى الغامض.. الشفيف ..

ندت عنها صرخة مكتومة.. ومرعوبة..

وشملتها رجفة موصولة ..

وراحت فى خدر عميق .

حلــم

حين خطبوها له كانت صغيرة وجملية، تحاكى الزهور فى رقتها وعطرها. ولما دخل بها قدموا لها الورود، واستقبلوها بالزغاريد. وفتحوا قلوبهم وأدخلوها.. فهى من سيأتى بالولد الذى يحمل اسم العائلة، ويمتد بها .

أقلقتها نظرة الأهل حين تأخر الحمل. اكتست الوجوه بعبسة شدت الملامح.. ولم تفلح مخادعاتهم فى ستر القلق الذى يطل من العيون .

.. فى غبشة ليل وبعد أن أنهت صلاتها ودعاءها له بالذرية الصالحة.. قالت.. وهى ترنو إليه فى حنو.. عاتب:

– لأحملنه فى العين.. إن جاء قبل موتى .

– العمر الطويل لك ..

أحكمت غطاء الرأس وبزغ من عينيها ألق مضىء .

– أصنعه على عينى، وأحمله فى قلبى كما حملتك .

– لك الفضل الكثير .

فرشت أصابعها. وتحسست السجادة وأومأت إلى الأركان..

– أريد أربعة.. واحدًا لكل ركن .

ضحك زاعقًا، ولم تفتها نبرة حزن زاحمت ضحكه فنغل قلبها ألمًا.

– أيعجبك ما أنت فيه ؟

يعلم أنها تقصد امرأته، وتشير إلى تأخر الحمل.. وخلو الأركان من العيال ..

– أنت مؤمنة.. تلك أمور بيد الله .

خبطت بيدها صدرها فارتج ونظرت إليه فى تساؤل مريب .

– أنت «صاغ» سليم !

– فضل من الله .

زاحمتها فرحة فردت وجهها وأبانت عن ملامحه.. وقالت فى زهو :

– أنت ابن أبيك ..

وواجهته.. كانت تخشى أن تغضب البنت، لكن الأمر

لا يتحمل مماطلة .

- طالبنا الله بالبحث عن حلول ..

لزم الصمت، وراحت عيناه ترنوان إليها فى سكون .

- أبوك مات وتركك.. وأنت الآن وحيد .

نترت يدها فسحبت شالها وبدا الشعر مجعداً ورماديا.

- ستجف شجرة العائلة.. وتجتث ..

عصرت قلبه قبضة قوية فبدا الألم على وجهه.. وهمس فى خفوت..

- الخلفة تروى الشجر !

علا صوتها.. ثم لان: من قال غير ذلك؟ تنمو الشجرة، وتطول فروعها، وتحمل الثمار.. وأنا أجلس تحتها.. ألتقط ما يسقط منها .

لم تفته عينها المنداة.. فانسحب ومضى .

* * *

كانت البنت تدرك ما يدور حولها. دخلها هاجس أنها غير مرغوبة.. ماذا فى يدها؟ هى كالأرض تعطى ما يلقى

فيـهـا.. هل ضنَّت بنفسـها. أو حـجبت بذرة نمت فيـها!!
تشعـر بضعف، وتقلق من نظرات الأم، وتمل من نصـائح
الأهل.. «لم يتدخلون فى حياتها؟»

تحب زوجها، وزوجها يحبها. لا تود فراقه، وإن تزوج
عليها.. أى ألم قاس ينشب مخالبه فى القلب إن فارقته،
أو تكالبوا عليه وأغروه!! ستموت لحظتها، ستشعر أنها
قائمة على فراغ. وأنها ستهوى إلى قاع سحيق، تتلقفها
الحيات والأفاعى وألسنة الناس.. لن توافق، ستطالب
بحقها أن تظل زوجة.. ولو أخذ النساء جميعًا ..

كاد قلبها ينصهر وهى تلاحظ الحزن الذى غلبه،
والدوى الذى شغل رأسه كلما عاد من عند أمه .

وكانت ترد على ذهنها حالات مشابهة.. الوحدة، النبذ،
الفراق.. عليها الآن أن تنتبه وتتخذ لها خط رجعة، يضمن
لها حياة كريمة..

.. انتقت لحظة رومانسية وأبدت جمالاً حقيقيا وازّينت.

هيأت نفسها وقالت: تعلم أننى أحبك ..

استدركت سريعًا وشعور بالحياء يطل من عينيها .

- لا تظن بى السوء .

تعجب من الحديث، وأبدى اهتمامًا وانتظر .

- أحب أن يكون مالى هو مالك .

أخذ نفسًا عميقًا وهو يلاحقها بنظراته، كاتمًا ضحكة تخاتله ..

- وأن يكون مالك.. مالى ..

رأت فى عينيه رغبة، فتدللت.. وانسلّت .

* * *

.. فى الصباح اتجها إلى الشهر العقارى لتوثيق عقدى التوكيل لكليهما .. وفى المساء ترددا على الطبيب .

احتاج الزوج إلى حقن تخصبه. وتناولت الزوجة علاجًا للتبويض..

وحين جاءت البنت طافا فى سماء الله الواسعة، وراحا يذرفان الدمع، ويبتهلان لله شكرًا، وقدما صدقات بعد السنوات المجدبة التى مضت .

ازدهت الزوجة، وأزهر وجهها، وشعرت بنفسها تجلس فوق تل من العشب الأخضر، والعصافير وطيور الجنة

تحيط بابنتها وتصدح لها ..

وانزرعت البنت فى القلب وتحولت إلى فلك ظلا يدوران فيه ويحلمان .

ولأن الحلم دائم وموصول.. قالت الزوجة فى لحظة ود دافئة :

– ألا تحب أن تؤمن للبنت حياتها ؟

واغرورقت عيناها: أخشى عليها الوحدة.. والزمان .

مسحت على لمتها المنسدلة على الجبين فبدت كمهرة صغيرة تفيض بهاء وقوة .

– سأنجب الذكور ليحموها من الطامعين .

لم يرد إغضابها.. فسجل للبنت كل ما يملك، ونسيا الأمر كله.. كانت البنت تخطو خطواتها الأولى فى تكسُّر وبهجة.. وكانا يحيطانها بحب منسوج بالأحلام. وفجأة نفذ القدر من حصاد الحب واختطفها ..

أنشب الطائر الوحشى مخالبه وطار بالبنت.. وخلَّف خيمة معتمة، جف العشب وهاجرت العصافير.. وسافرت الزوجة لتلحق بها ..

* * *

.. أخذه ذهول دائم.. فى لحظة مباغتة فقد حلمه الذى خبأه فى القلب. أهمل نفسه وعمله وأهله، ولزم الجامع. أقبل الإمام عليه يواسيه، ويوادعه، يعظه ويبشره، فهو الصابر المحتسب. خففت الحكايات التى يسردها عن القلوب المجروحة، ووصايا الصابرين فى الضراء سورة الحزن.. فراح يباشر حياته لمامًا ..

كان حزنه بعرض السموات والأرض.. ثم ضاق حتى ملأ القلب.. أوصاه الإمام أن ينذر لله وقفًا ..

مضى إلى البنك. فوجئ بأمر لم يخطر على البال.. سلب عقله ووعيه فخاصم الناس، والبنك، والأهل، والجامع وهام فى الشوارع وأتنس بالخلاء..

وظل السؤال يلح عليه.. لماذا تركته الزوجة عاريًا من كل شيء ؟

لم نقلت كل شيء باسمها ؟

ولماذا خانت الأمانة واستغلت التوكيل فى الشر ؟

أتفهم الآن أن ما نقلته عاد إليه.. وأنها قبضت على فراغ.. وخلفت حسرة فى القلب !

من يبلغها.. أنها محت حبا كان قائمًا ومكينًا .

وهام طويلاً.. صاحبه الخلاء والسماء، وكلأ الأرض ..

وفى لحظة إفاقة.. طالت قليلاً ..

اصطادته عين الإمام..فهرول إليه .

فتح الجامع الباب.. وأغلقه عليه ..

الهـــرة



ران عليها شعور داهم بالعجز وهى تخطو خطواتها تجاه قسم الشرطة. رأت فى الوجوه بلادة وفى الجنود تربصا. واحتارت كيف تنهى ما يشغلها فى مكان ضيق عفن الرائحة يتعارك فيه الناس ولا يرحم بعضهم بعضًا !

.. انتزعت الرحمة من القلوب !

أتبحث عنها لدى الآخرين.. والذى عاشت معه، وله.. أنكرها وتركها لتموت !

كان يجب أن تلجأ إلى محام يقدم الدعوى، أو يصاحبها فى شكواها !

لم تدخل يومًا قسما للشرطة، ولا وقفت أمام محقق. لم تسئ إلى أحد، ولم تغضب جارًا، أو تدخل فى شئون امرأة قريبة أو تجاورها ..

رضيت بأسرتها واكتفت.. أغنوها عن الآخرين..

ومع أن الزوج حاد الطبع، والأبناء كالعفاريت، إلا إن

الله منحها صبراً وحماها من تجاوز المألوف الذى اعتادته.

قدمت صحتها - راضية - له ولأولاده.. وها هم يقابلون جهدها بنكران واضح.. وما تصورت أن ينالها الغدر من أقرب الناس إليها !

.. رأت امرأة بدينة ترتكن إلى الجدار وتحمى صدرها بيدها من حركة الأجساد، واحتكاك الزحام. شدها تقلص الوجه والإجهاد الذى يبدو عليها. اقتربت ..

سمعتها تقول - دون أن تسألها - أنها قادمة لتشكو الرجل الشائب الذى لا يستحى، وتشكو الحكومة لأنها تترك هؤلاء «المطلوقين» دون أن تحاسبهم ..

وجمت قليلا.. فماذا ستقول فى شكواها ؟!

والله إنها تخجل أن تحكى ما حدث.. إنه أمر لا يقدم عليه حيوان.. الحيوانات تتداعى لبعضها .

جلست متهيبة تكاد تتداخل ..

سألها الضابط عن الاسم والعنوان، والحالة الاجتماعية.. ناء كاهلها بحزن مقيم فانفجرت فى بكاء كالعويل .

بان الضيق على الضابط، فأخرج سيجارة وأشعلها. نفث دخانًا موصولاً فتلوى فى فضاء الغرفة كغيمة صغيرة .

رماها بنظرة نافذة، وبزفزة حادة تشى بضيق وتأفف. كفكفت نهنهتها وقالت :

– أريد أن أقدم شكوى ضد زوجي وأولادى .

– اعتدوا عليك ؟

– لا ..

– سرقوا منك شيئًا ؟

– لا ..

– تزوج عليك ؟

– لا ..

رمى القلم وحدق فيها طويلاً.. فانكمشت .

لم يمر عليها موقف كهذا.. وما وقفت أمام ضابط.. أو عسكرى درك .

أسرعت فى وجل يطل من عينيها الزائعتين .

– كانوا يريدون موتى .

– يكرهونك !

– بل يحبوننى جدا، وأنا أحبهم .

جاهدت لتتماسك وتمنع الدمع .

– الدنيا هكذا .. تقدم الحب، فتقابل بالكره .

كان غاضبًا، ومتأففا، فلا طائل مما تقول. عليها أن تحدد الشكوى وتصل إلى الموضوع مباشرة. الواقفون فى انتظار تسجيل البلاغات كثيرون. وكانت البدينة تشوح بيدها تتعجّلها ..

وفى لهوجة لا تبين.. انفك لسانها ..

* * *

.. أنهت أعمالها اليومية فى الثالثة عصرًا .. واجتمع الأب والأبناء حول الطعام. أكلوا، وشربوا وتناولوا شرائح البطيخ.. ثم انسلوا واحدًا وراء الآخر. توارى الأبناء فى غرفهم، وهرول الزوج ليلحق بتعسيلة ما بعد الغداء ..

ومضت – هى – إلى المطبخ، غسلت الأوانى. ونظفت المكان، ورتبت الطعام فى الثلاجة ثم اغتسلت، وجففت نفسها، ودارت حول الأثاث، وغرفة الأبناء. وأحكمت

صنابير المياه.. وأطلت فى المرآة.. وابتسمت.. مضت إلى غرفتها، سعيدة .

كان التعب قد نال منها فأخذها النوم سريعًا.. ولم تدر بما حولها .

.. فجأة شعرت بأن يدًا تجذبها.. وترجها فى هزة موصولة.. هبت مرتعبة - كأنها فى حلم ثقيل- رأت السرير يرتج، ويرتحل من مكانه .

رمقت السرير فلم تره بجانبها..

نترت نفسها مذعورة، ترنحت ثم تماسكت.. كان باب الشقة مفتوحًا، والصالة مظلمة.. ثابت إلى وعيها، وأدركت أن هزة قوية ضربت المكان.. وأنهم هربوا. وتركوها .

* * *

خبطت على صدرها، وغيمة الدمع تتقاطر وأنفها الأحمر يرشح.. حتى كاد الضابط يرق حالها، وبدا له أن قلبها يستعر فاصطبر عليها .

- هربوا وتركونى.. لم يكلفوا خاطرهم فيوقظونى .

الرجل «الدُّون» كان ينام بجانبى، هب ولمَّ أبناءه ونزل بهم.. ولولت، خشيتُ أن يصيبهم مكروه.. وأنا أكاد أرمح باحثة عنهم وجدتهم يصعدون.. وراحوا يتأسفون.. ويطلبون السماح ..

الحيوانات - يا باشا - تنادى على بعضها وأبنائى تركونى، انشغلوا بأنفسهم ونسوا أمهم .

الرجل «الدون» كان يتمنى أن «أروح فيها» حتى يتزوج..

نظرت إلى الضابط بعين مبغضة وقالت :

- لا أمان لكم .

طالبها بالتوقيع.. فبصمت . وانتظرت ..

* * *

جذبها حديث البدينة فانتبهت ..

كانت البدينة تشكو الرجل الذى شدها بين يديه، واحتضنها جهارًا أمام الناس.. أبعدها عن الشرفة التى تحتمى بها خوفًا من الهزة المفاجئة. بدا لها سوء نيته حين احتبسها بين يديه قليلا بحجة طمأنتها.. حتى

أحرجها أمام الناس.. صحيح كل واحد كان منشغلاً بنفسه، لكن من يدرى؟ ربما يكون هناك واحد يترصد.. فيتصور أن بينهما علاقة .

– لقد أساء إلىَّ وأهاننى وأنا معروفة بين الناس بحسن السمعة .

كانت المرأة مذهولة وهى تتابع البدنية..

نترت نفسها وجذبتها من «طوقها» فتمزق .

كانت الأوصاف تنطبق على زوجها ..

الخنَّة التى تصدر من أنفه، والرائحة الزنخة التى لا يغيرها صابون أو رائحة.. وصلعته التى تسحب حاجبيه.. هو نفسه.. لابد أنها أغوته ..

صاحت فى قوة وهى تدق المكتب :

– لابد أنها أغوته .

خشى الضابط أن يحدث لها مكروه، فلقد كان الغضب يهدر من عينيها وينفض بدنها .

أشارت إليه فى قوة وعيناها متصالبتان، لا تطرفان .

– اكتب أنه يستحق القتل.. وأننى قاتلتُه .

ورمحت مسرعة ..

وهرول العسكرى وراءها ليحتجزها .

لكنها كانت قد مرقت كهرة تموء فى ألم حقيقى..

الومضـــة

نظرا فجأة تجاه المرأة الواقفة عند انحناءة الجسر القديم وهى تقبض بيدها على المال الذى تأخذه وتدسه فى جيبها ثم تعود إلى وقفتها منحنية الرأس، يلهج لسانها بالدعاء.. والسؤال .

حل عليهما سكون عميق منع ضجيج الشارع أن يلج إلى مسامعهما .

كانت البنت تغافل الولد وتنظر إليها.. تحصى الأيادى الممتدة، وتتأمل الوجوه والسِّحن، وتتخايل لها العملات أوراقًا مصقولة، وملفوفة، ومكومة.. ثم تسحب رأسها وترمى بعينيها إلى مواطئ القدم .

وكان الولد يسارق المرأة النظر وهو يحادث البنت وعقله يحسب ما يصل إليها.. ورأى أن ساعة واحدة فى مكانها.. تعيد إليه الحياة .

* * *

بعد أن هاما فى الطرق، جلسا على مقعد قديم قرب الميدان.. عرفا أماكن اللقاء، والخفاء، وأنواع المقاعد والبواكى.. وعجزا بعد التخرج عن تدبير عمل..

يلبد فى الذهن - وعايشوه - ما يتردد على الألسنة، وتطير به الأخبار عن الحواجز السوداء التى تقف كالجنادل وتسرق الحلم.. اصطدما بالفساد، والرشوة، والواسطة، وإلحاح الوجوه القديمة، أبكاهما انتحار الأذكياء الفقراء، وانطلاق الأغبياء !!

كاد اليأس يطويهما ويرمى بهما تحت الأقدام ..

حتى جاءت الالتفاتة كالومضة الخافتة .

.. تلفَّتا فجأة ..

رأيا معًا حركة اليد، وانفراجة الوجه، والمال الذى يتراص فى استكانة، ونمو الموسم الصيفى، وحسن اختيار المكان أو تأجيره ..

نط قلباهما معًا .

انفلت البريق من العين وفرش ملاءة من النور على المرأة، والجسر والفراغ ..

ازداد النبض حتى كاد يشعل جسديهما..

.. جذب نفسًا عميقًا، فجذبت نفسًا عميقًا..

أغمض عينيه، فأغمضت عينيها .

رأى عالمًا من السحر والجمال ..

ورأت المسكن، والغرفة البهية، والحشايا اللينة، والمرآة التى عكست صورتها عارية ..

صرخت – مرعوبة – وهو يلج الحجرة.. فمدت يدها وزغدته .

– أنت جرئ جدا !

لم يتوقف أمام رعبها الذى مشى على وجهها.. وساءل نفسه:

أيتجرأ ويتقدم واقفًا وراصدًا أعين الناس وأكفهم ؟!

ورنا فى عمق إلى البنت التى تداخلت أعضاؤها وأحكمت ذراعيها فوق صدرها لتستر خبيئتها.. وعيناها غائمتان .

فوجئت به يلمس خصلة نافرة من شعرها ويهمس ..

– ما رأيك ؟!

لمحت ولهًا جنونيًا يطل من عينيه، وأطرافه تومض بالرعشة .

التفتا معًا فى استدارة كاملة إلى المرأة.. وإلى حنية الجسر، وزجاج العربات، وأجساد المارة واندساس الكف.

خرجت منهما معًا.. صرخة زاعقة سحبت قلبيهما ..

وأرسلا عينيهما تفتشان.. وتومضان ..

* * *

– ما رأيك فى الجانب المواجه ؟

– حركة الرجوع إلى الجيزة قليلة .

– الأمر يقتضى ملابس خاصة !

– بالطبع .

– أتقفين أولا ؟

– أنت الأول .

– ما نقوم به.. احتيال ؟

– نتأسى بالحكومة ..

– علينا أن نكون معًا .

- كيف ؟
- أقول لك ..

* * *

وفى المساء كان الولد يجلس فوق كرسى مخصص للمقعدين يرتدى جلبابا أبيض مشت فيه بقع معتمة.. يتهدل عند الكتف، وتتبدى المزق فوق الصدر.. ذراعه الأيمن محجوب تحته، والكف الأخرى مربوطة تحت بطنه.. فبدا أكتع.. وبائسًا .

ارتخى وجهه ارتخاءة تفيض بؤسًا.. وتستدر العيون الرانية ..

وكانت وهى تدفع به فى مسكنة، والبلاطات الصغيرة اللامعة فى طريق الكورنيش تشد عينيها.. تتلقى عنه العطايا التى فاضت عن الجيب الممتلئ..

خفقة الضـــوء

.. غمر الشرفة ضوء نهار خريفى، وهبت ريح باردة فأرعشته فى جلسته. أحكم «الروب» وشد مئزره وحرك مقعده حتى طاله ضوء شمس يخايل السحب. كانت الغيوم تفرش ملاءتها على المدى ويخترقها أحيانًا زفير كاللهب. مد يديه يحضن الدفء فى لذة راعشة .

.. خطفت عينيه ورقة كافور تطوحها الريح، زاحم عطرها فانفتحت مسامه على شهقة عميقة. أمال جذعه والتقطها عند الحافة، فاح العطر فضبط تنفسه فى تدريب يعرفة حتى سرى الدم فى الأوردة وشعر بحيوية لم تخنه كثيراً .

زاحمة الهدهد فتملاه معجبا. تاه بألوانه المخملية وقنزعته المشرعة بلونها البنى الداكن وخطوطها المصفرة. كان يتهادى متعجلا ويطارح منقاره الأرض حتى جذبه دغل من النوار فدخل فيه واحتجب. ود – فى جلسته – لو

تضاءل وتداخلت أعضاؤه كى ينعم بعطر النوار ومائه المستور .

* * *

جاءه فجان القهوة فى تمام العاشرة ..

يجب أن يطالع أهرام الجمعة على رشفات قهوته بسكرها الزائد. مر سريعًا على عناوين الصفحة الأولى.. وقرأ البريد ثم أمسك بالقلم وبدأ يحل الكلمات المتقاطعة.. وكان وهو يستعيد المعلومات والأسماء وكأنه فى مجاهدة. فى الصفحة المقابلة التقطته الصورة فتزلزل .

نحى الفنجان والقلم. انسحبت روحه وارتجت يده ..

من النادر أن يقرأ صفحة الوفيات أو يأخذه الإعلان عن مشاطرة الأحزان. يرتعب من العيون الدامعة والوجوه البائسة وهى تترك على مساحة القلب ندوبًا كاوية .

وأمعن النظر ..

النظارة المحدبة بزجاجها السميك، العين الثاقبة.. الباردة التى لم يفلح الزجاج فى حجبها، الأنف الحاد، الجبهة الملمومة فى انحناءة مدورة بين شعر غزير على الجانبين .

إنه هو.. هو نفسه !

وجحظت عيناه، وجاهد شفتيه أن تنفرجا.. وقرأ:

على رجاء القيامة انتقل إلى الأمجاد السماوية الطبيب النابه ...

زمَّ صدره فى تهويمة مدهوشة.. وتمتم: طبيب القلب !!

* * *

ظل يؤجل الزيارة .

أطراه المقربون وذوو الاختصاص وألح عليه الأهل.. حين اشتد الألم ونهش صدره وراحت نبضاته تنفلت فى فوضى وتأخذ روحه معها، قرر أن يذهب .

كان يتساند على أعذار واهية مخافة أن يباغته فينسحب ما بقى منه. لكن القبضة اشتدت وعصرته.. فمضى إليه ..

.. رنا إلى الأوراق، ورمق التحاليل، حدق فى صور الأشعة، وتابع فى إمالة رأسٍ.. رسْم القلب بالمجهود، ومستوى النبض، وفَرّ فى عجالةٍ التقرير الطبى المحول به.

واستقام عوده فى اكتنازه .

كاد يتوقف قلبه.. وراح وجهه كله يستجدى رحمة مبتغاة استقطرها حتى رقدت على شفتيه المزمومتين .

أطال الطبيب النظر إليه.. ثم تمتم :

– هكذا .. قضى الله .

تسارعت الدقات الواهنة واصفرت الملامح .

– فى حالتك.. لا تجدى الجراحة .

وامتدت يده إلى صدره تدرأ عنه نهشة. تعصره وقال فى رجاء :

– أجمعوا على الجراحة .

كوَّم السماعة ورمى بها على مكتبه. أطل المرض يومئ له أن العيادة تضيق بالمرضى. احتد فى نزق وتعالٍ:

– ولم جئت إلىَّ ؟

– الكل يمتدحك .

لم يسمح الطبيب للبسمة أن تلوح على الشفة وراح يتحرك فى بطء كأنه الترجيع، فأوجع المريض، فخفق صدره وصدر من معه .

لكن الطبيب الذى دهمهم زهوه كالإبر قال :

- وصل الأمر إلى نهايته .

امتدت ومضاته من وراء الزجاج السميك، وخلع رداءه الأبيض وارتدى سترة رمادية اللون بخيوط زرقاء، وضغط على الجرس.. ورمى بعينيه إلى امرأة المريض .

- تحملوا إلى أن يأذن الله .

كادت المرأة تخنقه. فاض داخلها بكراهية سوداء واستعدت عليه ملوك الجان أن يخطفوا روحه ويرموا بها فى قعر جهنم.. لم تقو على كظم الغيظ فصرخت فى وجهه.

- ربنا يجعل يومك قبل يومه .

* * *

دقق فى النعى.. وحمد الله أن من عليه بنعمه .

أعاد القراءة.. مرة.. ومرة .

«إثر أزمة قلبية مفاجئة توفى طبيب القلب الشهير...» وغامت عيناه.. وراحت ندف السحب البيضاء تصنع له حشية من القطن المندوف على مدى السماء ليتكئ عليها، ورفرف قلبه فى قوة كخفقة طائر ماجن فى سربه .

كوم الدمع فى المنديل وابتهل .

وتنهد فى عمق.. زمان مضى كأنه الومضة !!

وشهق فى قوة، وكتم خفقة الضوء.. الذى اختلط بعوالق الروح.

وراح فى غفوة طويلة .

البديـــن

مع أن جسـده بدين وطيـاته لدنة إلا إنه عـجـز عن مـقـاومـة البـرد. ارتدى مـلابس ثقيلة وادثر بـالكوفـيـة. لا يدرى كم يستغرق تطوافه. فى ضوء النهار تتعدد الوجوه وتتحدد.. لكن الليل - وإن اخترقه الضوء - شحيح بهم، يخشى مواجهة الأفراد، ويتوقى العواقب.. يطلبهم غالبًا فى المقاهى والتجمعات .

ومضى إلى المقهى ..

اختار طاولة نائية وراح يحتسى الينسون ويلتقط نثار مـا يصله من أحـاديث.. عـادة لا يقـوى على البـعـد عنهـا، تشغله وتساهم فى تواصله مع الغير .

فى التفاتة متأنية رآه قريبًا منه .

يرتدى جلبـابًا زاهيـا، ونظيـفًـا، آثار الكى بـارزة فى الحنيـات والأكـمــام والأجناب. تتـدلى أطراف العـبـاءة السوداء بقصبها الملون وزهوها المصفر ..

خطف بصره لمعة الحذاء فى أرجحته الرتيبة .

لمته عيناه وتوجه شطره .

* * *

.. وقف أمامه فبدا كحائط قديم .

أُخذ وهو يمد يده فى تجرؤ.. ويقول :

– ألك فى الدعابة ؟

شدته حركة الرأس فى ترددها كبندول، فكتم ضحكَه.

ودون أن يأذن له جلس ومقاطع صوته تتباطأ .

– أيصلح العطار ما يفسد الزمان ؟..

* * *

كان البدين يفرش جسده على المقعد ويفيض..وكفه تقبض فى قوة على مبسم الشيشة كأنما يخشى أن يفلت منه. وضحت شراهته وهو يزفر موجات متلاحقة من الدخان وعيناه مصوبتان إلى الرجل «المهندم» الذى راح يرنو إليه فى إمالة رأس وانية، وحبل الشيشة يهتز فى يده، والشفتان المنفرجتان ترسلان أدخنة واهية .

أبعد المبسم فانطلق الدخان مارقًا .

حدق فى الرجل المهندم .

- أتعرف أسرة أبى بكر ؟

أومأ بالنفى فتابع ممتعضًا :

- عائلة تنتسب إلى الصديق.. رضى الله عنه .

حسا حسوة من الشاى فامتلأ فمه .

أنهى إليه أن كبيرهم يمشى بين الناس ويشيع أنهم منسَّبون .

اعتدل فى جلسته واقترب برأسه من البدين :

- ماذا عندهم ؟

سحب البدين نفسًا طويلا حتى امتلأ صدره ثم أخرجه غيمًا راح ينعقد فى سماء المكان.. علا صوت العامل وطلب منه أن يخف قليلا.. حتى لا تمطر السماء ..

يعرفة الكثيرون، ويمازحه رواد المقاهى.. ويأنس لهم.

ضحك فى زمة تمسك بالمبسم وقال رامقًا .

- تطمئن وأنت معهم ..

أومأ فهرول العامل ..

يعى إيماءته التى ستطول كثيرًا.. فهو فى مفترق

الطرق.. وطريقه مفروش بالطلبات ..

غيَّر، وبدَّل، وأتى بالقهوة والعناب والماء البارد ..

– سيتولون أمرك .

– عائلة أبى بكر !!

افتر ثغر البدين عن نابين طويلين وأسرع يتخطى دهشته .

– كل شىء بأمرك.. وأنا ضامنهم .

واستقام فى بطء ولم جلبابه، ورمى بكوفيته وقعد.

– ستصل إلى المرام :

وحدق فيه بنظرة نهمة :

– معى من يسير على الماء !

وصفق فى رعونة، فالتوت الرءوس، وضحك الزبائن.. تعودوا صخبه وذهوله .

– ستحصل عليه .

رفرف فتهدل الكُمَّان وظهر الساعد ملفوفًا وأجرد .

زعق فى حدة « كالصُّوات» :

– هنئوا حضرة النائب .

ارتفع الضجيج.. ثم عادوا إلى ما يشغلهم .

سمح لنفسه أن يمد يده ويبسط كفه ويشد طوق المهندم.

– هذا الطويل القابع فى بيته وسط نعاجه لن يقف فى طريقك .

وأسرع يتحدث فى هرولة :

– لقد سلطت عليه كبير عائلة البكرية ..

* * *

.. يعرف ما يضمره. يكشف نواياه ويفضح ستر الخبايا.. ويلبد تحت حضنه.. ويحضر مآدبه.. فى الخميس الأول من كل شهر، يرسل إليه.. وقبل أن يلج يطمئن أولاً على الطعام والشراب وقطع القماش.. يتمتع بما لذَّ.. ويترك نفسه – معهم – ليغرق فى غيمة العطر، ويؤرجح رأسه مع ابتهالات المنشد.. ويدس رأسه.. والساهى يقيم المندل.. ويقرأ الطالع.. ويهمس له.. معك المنسبون. ويروح يصعد فوق متن البخور المعطرة.. واعداً بأخمسة كثيرة وفيرة الطعام والشراب.. وهو يعتلى بطوله

الفارع متن البخور المعطرة .

- أمثل هذا يمثل الدائرة ؟

تنبه من غفوته ونظر إليه المهندم مندهشًا ..

لاح عليه شبق زاهٍ طفا به وعلا حتى خال نفسه يحلق فوق المجلس ونجمة فى السماء تخايله. وعيناه تهومان.. وهو يرمق البدين الذى دغدع مشاعره وأيقظ فيه توقه إلى تمثيل الدائرة .

وظل يرنو إلى وجهه المكتنز.. ويتعجب ..

كيف عرف بما يعتمل فى نفسه ؟

- إنه يسحر له ..

ونتر البدين جسده زاعقًا ..

- سينقلب السحر على الساحر .

واستدار ويداه تهفان البخور وتبعدان الدخان الأشهب حتى بدا فى عينى المهندم كأنه جمل بسنامين .

- لم تعطنى البركة !

حملت ملامحه عجبا مشى على الوجه حتى كاد يفضحه ومد يده إلى جيب سترته .

– حين تحلف اليمين ستجدنى .

وأخذ يحرك رأسه فى أرجحة محسوبة ..

ثم انحنى بغتة وعينه تخترقه ولفت انتباهه إلى أن شتاء العام قارس البرودة، وأن العائلة تحتاج إلى كسوة..

قبض المهندم قبضةً وأعطاها له .

ورمق البدين الكف القابضة وابتسم ثم علا صوته بالحمد..

* * *

أراق بريق عينيه حوله حتى شمله ضوء شفيف فتحركت ذراعاه فى حركة من يدفع الماء سابحًا ..

واصطاد دقات قلبه فابتسم وقال فى وداعة :

– مبروك ..

جأر صارخًا فهرول عامل المقهى .

أومأ فى ثقة المطمئن إلى المهندم .

– خذ منه ثمن الحجر، والشاى، والقهوة.. وطول القعدة !

تسحَّب فى أرجحة البدانة، وقال منبها :

- لا تنس.. لا أبرح المكان .

ظل يتابعه بوجهه الواعد.. المندهش، وهمسه يعْلق بسمعه كأنه دوى وهو يخبره بأنه سينتظره عند كبير عائلة أبى بكر ..

وقد يقيم له المندل، أو يقرأ الطالع .

ستطير فى السماء ..

ورفرفت عباءته كأنها الأجنحة .

وزها بمقعده ..

وهو يطير فوق مخدة من دخان أبيض .

زنزبيـــل

أوغل الليل وأرجفت رياح الخريف الوجوه والأبدان، وسجا هدوء نادر على المقهى، وعلت أبخرة المشروبات كخيوط شهباء تتلوى .

أفضِّل فى الطقس البارد احتساء الشاى بالزنجبيل أملاً فى لسعة تدفئ البدن. يعرف النادل طقسى الليلى. هذه الليلة هفت نفسى إلى فنجان قهوة.. نبهت عليه أن يصبها فى كوب صغير وطالبته أن يفرغ المحتوى كاملاً. تضاحك معى وأمال «الكنكة» حتى كدت أرى القاع الداكن. لمعت عينى وأومأتُ، فانسحب .

يظل الكوب أمامى، أرتشف منه حتى أنتهى من إشعال السيجارة الثالثة .

وقبل أن أنتهى من الرشفة الأخيرة لمحته .

كان هادئًا وساكنًا. تكاد أعضاؤه تتداخل. هامت عيناه وتابعت سيارة مارقة وحطت على ذؤابات الشجر،

ثم نزلت هاوية إلى موطئ القدم .

انكفأ رأسه حتى كاد يندفس فى صدره .

بدا مشغولاً، وشىء ما يأخذه ويبعده .

أثَّرت فىَّ انكفاءته ..

لم أتعود أن أقحم نفسى على من لا أعرف.. لكننى أطلق عينى فترسم لى صورة للمشهد ..

ناديته فأطال رقبته .

أشرت إليه فانتقل بمشروبه .

نفذت رائحة الينسون ورحبتُ به .

تلفتَّ على صخب شباب يلهو فابتسم وحسا حسوة مختلسة ودفس يده فى جيبه .

اقتحم المقهى - فى هرولة - أفراد يحملون آلات موسيقية. حيوه فى إهمال، ومضوا إلى مقاعدهم ..

لملم عينيه وقال متوددا .

- أخبرنى صاحب المقهى أنك فى منصب كبير.

أومأت ولم أعلق .

لم أقل له إننى على المعاش، وأن الرجل يحرجنى

ويتباهى بى .

قدمت له سيجارة فاعتذر.. الشباب من حولنا أقاموا سماء رمادية .

قلت وعيناى تطوفان بعينيه :

- أتبحث عن عمل ؟

تنهد فى صوت مطوط .

- أعمل مع عازفين بسطاء .

قلت ببهجة حقيقية أدهشته :

- أنت فنان إذن !

قبض على الكوب لم يفتنى تقلص فى اليد، ورعشة مرتبكة .

- عملى أن أحمل الأدوات .

أحرجته نظرتى وملمحى المتسائل.. أدار وجهه واحتواهم ثم أطل بوجهه كله كأنه يلامسنى .

- أقف أمام الآلات للتمويه.. أتظاهر بالعزف، أحرك أصابعى وأتمايل.. كأننى عازف ماهر .

ضحك ساخراً وقال فى خفوت :

– الآلات الحديثة تكتفى بنفسها .

– أين تقيم ؟

أدخلنى السؤال فى عتمة الحزن وحركنى. تحدث طويلاً ولم يتوقف، دفقة بدأت وامتدت وانتهت بدمعة ساخنة أرعشت المكان حتى تهيبت الأمر وتوجستُ ..

– المقهى مقرى، وموعدى.. غالبًا.. آخر الليل. فى عودتنا أميل إلى المقهى.. أختار ركنا بعيدًا.. وأنام ..

وضحك فى نبرة ساخرة .

– أعتبر المقهى بيتى منذ أن طردت من بيتى .

* * *

كان الملجأ هو البيت الأول ..

ذات صباح قدم رجل وامرأته، راحا يعطفان على الصغار ويقدمان الهدايا والعطام، ويفرزان الوجوه. توقفا عندى.. تمليا فى وجهى وابتسما. أومآ إلى المشرفة وانسحبا .

كان الأمر صعباً وهى تخبرنى أنهما اختارانى لأعيش معهما .

بكيت لحظتها، وشعرت برهبة حقيقة.. احتضنتنى واحتوى صدرها وجهى كله وربتت على، وقالت فى بحة حزينة :

– سأزورك. وستأتى لترى إخوتك ..

كان الألم يعتصرها وهى تسلمنى إليهما .

– لا تخش شيئًا ..

.. أنا متعلم.. قالها وهو يرمقنى ويتنفس فى عمق. ويعلو برأسه كأنه يتيه.. لا ضير.. من حقه أن يتيه لحظة.

– أدخلانى المدارس.. وحصلت على الدبلوم.. لكنها ماتت ..

آلمتنى إطراقته، وردد فى همود.. ماتت !

قبل أن يرين الأسى ويتمكن، تنبهت وطلبت كوبين من الشاى أحدهما بالزنجبيل الذى تعودته فى الأمسيات الباردة .

يرجفنى الحديث عن الموت. يختطف الأحباء فى قسوة ويخلف ألمًا لا ينتهى.. لا أحد يعوض فقد الأم. يترك غيابُها ندوبًا لا تندمل. الحياة فى ظل امرأة أخرى أو أب

بديل تبعث على الجفاف وتفتح مغاليق النفس المعتمة .

خرجت منى زفرة ساخنة، فتأملنى.. وصمت .

هبت ريح باردة فعبق المكان برائحة الزنجبيل .

بكى فجأة، ارتج جسده وانتفض وامتلأ وجهه بدم حار ولاح مزروداً كأن عروقه ستنفجر.. واحترت .

تنبه زملاؤه وأقبلوا، اطمأنوا ثم انشغلوا بأنفسهم وبالعربة التى ستقلهم إلى العمل .

وكمن تدرب على تمارين التنفس العميق.. تنفس. شد جزعه وامتلأ صدره، واحتبس الهواء ثم أخرجه كأنه الصفير .

– كانت تحب القرفة بالزنجبيل فى ليل الشتاء .

وابتسم فى حياء وقال مصوبا عينه نحوى .

– كانت تسميه «زنزبيل».. لكنها ماتت .

– كانت أمى تفعل نفس الشىء قبل أن تموت وأنا صغير .

– لم يتحملنى زوجها طويلا .

كان ذاهلاً فرفعت صوتى أطالبه أن يحتسى الشاى

قبل أن يبرد وقلت فى جد وشفتاه تلامسان جدار الكوب وعيناه تحطان على :

– هو أبوك بالتبنى أيضًا .

لفظ الشاى حتى كاد ينسكب .

– لم يحبنى كثيرًا ..

* * *

.. كنت ألتمس له العذر. كان قد هرم ونال منه المرض. وقرَّر أن ينتقل للحياة مع أخته. «هى أولى بى. وحين أموت أجد من يسبل عينى ويحسن دفنتى.. ويترحم على..» لكن أخته اشترطت أن يأتى بمفرده.. أرجأ قراره عدة أشهر. وتجنبنى. لزم الصمت وداوم التحديق فىَّ. كان واقعًا تحت وطأة شعور جامح يمنعه من الإساءة إلىَّ.. كانت أمى تخفف عنه انفعالاته، وخشيت منها عليه.. فضلت أن أتجاوز الأمر.. وأنتظر. يعلم أننى أنتظر.. لكنه عاجز ..

فى صباح يوم جمعة، جاءنى باكيًا.. لم أره يومًا بهذا الضعف. وضع أمامى كومة من النقود، لم أنس ملامح

وجهه المحتقنة، وعينيه المنتفختين من البكاء. والدموع تنسكب وتحفر مجرى على أخاديده .

- كانت المرحومة تناديك «عادل».. اسمك الحقيقى يوسف.. هو فى شهادتك، وهو الذى خرجت به من الملجأ.. اطلب من الناس أن ينادوك به حتى تتعود عليه .

* * *

.. لم يعرفنى أحد بهذا الاسم ..

أنا تجاهلته.. حين كان ينادينى أحد به، أتباطأ، وأبدو كما لو كان يريد شخصا آخر ..

نسيت اسمى وكرهته وأنا أقرأه فى دفاترى وصورى وشهادتى وتحقيق شخصيتى.. أكنت أخاصم الزمن وأرفضه !!

كانت أمى تدرك أزمتى وتأخذنى فى حضنها وتسيل عيناها وتقول لى فى هدهدة حقيقية :

- أنت عادل.. ماذا يفيد الاسم ..

* * *

أدركت حزنه، فآثرت السكوت الغافى وعينى عليه.

رفع رأسه فجأة وبسط وجهه كله أمامى وقال محدقًا..

- ماذا يفيد الاسم ؟

نضح وجهه.. بألم حقيقى وجاهد أن يكتمه فخانه بدنه برجفاته المتتابعة كأنه فرع شجرة تطوح به ريح شمالية.. واتشح حديثه بترجيعات كالندْب ..

ظل فترة يعسُّ فى المكان، يسأل عن الأب.. حين علم أنه مات حزن عليه وداوم على الذهاب إلى قبره كل يوم جمعة حتى أخذته الدنيا.. شغله الاسم الذى عرف به فى الملجأ..

.. اسمه القديم الذى بهت حاول استدعاءه، وإعادة طلائه..

كانت الأم تتصدر واجهة المشهد وتداوم على رعايته.. حتى كبر معها ونمت مشاعره. لم يعرف سواها فاستغنى بها.. وانسحب الأب إلى الظل ..

- ما الذى جعله يرمى به فى وجهى ؟ أيعجزنى !

- لن يوقفك الناس فى الطريق ويسألونك.. من أنت؟ ارم وراء ظهرك .

– ليس سهلا أن تدع خلفك تاريخًا طويلاً .

– بل سـهل.. فمعك شهادتك. واسمك المعترف به رسميا ..

ودعوته أن يتملى الجالسين والراكبين والراجلين وزملاءه العازفين.. وسيدرك أن وراء كل واحد حكاية، ولو وقف المرء عند نفسه وانحصر داخل إطاره لتوقفت الدنيا ودخلنا دهليز الألم المزمن ..

* * *

وصلت العربة فعلت أصوات العازفين.. حملوا آلاتهم وبدءوا يغادرون المقهى ويصعدون ..

أخرجت من جيبى عشرة جنيهات وقدمتها له ..

نتر جسده فجأة وانتفض .

تملانى طويلا وعينه ترنو فى عتاب .

– آلمتنى .

قرأ الدهشة فى وجهى .

– الذى احتجته أخذته .

وابتسم ..

انحنى هامسًا وهو يرمق زملاءه ..

- لا أحد يعرف بالأمر سواك ..

نهضت فاردًا جسدى ..

لابد أنه رأى الفرحة فى وجهى وأنا أقول ..

- تجدنى دائمًا .. هنا ..

مددت يدى واحتضنته .

ظللت واقفًا أرنو إليه .

كان قد جلس بجانب النافذة وراح يرمقنى وأنا ألوح له بيدى عاليًا دون أن آبه بلسعة الخريف .

حـــذاء

فى طريقه إلى التليفزيون عرج على المقهى الصغير فى الشارع الضيق.. فيه يجد راحته ويشعر بود متصالح مع الفتى مدكوك البدن القائم بالخدمة.. قبل أن يلج يكون قد أمعن النظر فى خلق الله واقتنص لنفسه ما يصلح للحديث مع الصحبة .

تمهل - كعادته - أمام المدخل، وتملى فتحته والدرجات الواطئة التى تأخذه إلى الداخل ثم استدار فى لفتة رانية إلى الفندق المواجه فى بهائه وطلته على النيل وأطلق تنهيدة عميقة وتوقف قليلا. أرسل بصره على الرائح والغادى وتباطأ.. الجميلات يخطفنه ببهائهن وبملابسهن الضاغطة، وصدورهن البازغة .

..انخطف قلبه فجمع نفسه ونزل الدرج .

جاهد أن يطرد الصورة العالقة. كانت البنت قد رفعت ذراعها فى حركة كالعمد.. شدت صديريتها الضيقة

فلاحت مساحة من البطن عارية ولامعة بوشم بنى غامق. واجهه البهو الضيق فمد إصبعيه وأخرج من بين أهدابه صورة البنت وزهوها .

انتقى طاولة فى الركن القريب من الشارع.. كى يطل على مساحة عريضة من حركة الناس. يحب أن تنشغل عيناه بحركة الشارع كأنه يستجير به. يخشى على نفسه من عينيه.. تتجولان فى المكان.. تحدقان فى الوجوه، تداعبان الملامح.. وتجلبان عيونًا تحدق وتوترًا يقلق .

رفع رأسه فاصطاد أجساد المشاة حتى المنتصف. تأمل حركة القدم وانسياب الساق، ونوع الحذاء. يمتعض حين يرى حذاءً متسخًا أو كالح اللون، ويأسى لقدم امرأة تشقق جلدها، أو لساق غليظة تورم جلدها، وترهل .

استهوته مؤخرا رؤية البنات فى ملابسهن التى كالسراويل بشرائط اللون التى تعكس الجلد وتكوينه. لم يقصد إلى ذلك قصدا.. يراه نوعًا من تدريب العين على المرئيات.. واختيار الجميل منها أو المثير .

زاحمته سحابات الدخان الصاعدة من «الشِّيَش»

المتناثرة، وصك سمعه رنات النرد ودقات الدومينو ..

تكاد الوجوه لا تتغير .. وموعده أيضا ..

* * *

.. تعوَّد أن يصل مبكرًا ..

فى العاشرة تمامًا ينادى على «حامد» عامل المقهى مدكوك البدن .

أمامه متسع من الوقت حتى موعد تسجيل البرنامج الإذاعى .

يتردد على الإذاعة لمامًا، لكنه حين يستدعى يستعد للأمر، ويصحب معه أوراقه وسجائره .

هلَّ حامد وبشَّ له. تربطه بزبائن المقهى عِشرة طويلة.. تتلاقى الوجوه، يقرأها، يستنطق الملامح ويبادر بطلباتهم، يتعجبون ويتحدثون عن الألفة التى تجمع القلوب وتصنع مساحة من الدفء .

– الفطور يا حامد..

هرول إلى البقالة المجاورة وألقى بمطلبه ومضى .

واصل تقديم الطلبات.. الساخن والبارد. كان ذهنه

يقظًا وهو يقبض ثمن «المشاريب» والتدخين. يندس بين المناضد مارقًا فى خفة. يقف دافسًا كفه فى جيبه. يفرز العملة، ويتباطأ. ينظر إلى الزبون وينتظر. يحك ساقه العارية ويحتمى فى ابتسامته.. ثم يعرك الفكة فى يده قبل أن يدسها فى جيبه .

وقف أمام الأستاذ وانحنى. وضع أمامه الطعام وعلا صوته..

– سندوتش التونة بالفلفل، وسندوتش الجبنة الرومى .

وفضَّ ورقة مبللة تحوى «مخللات».. ثم نادى على صبى صغير .

يحرص الأستاذ على تناول المياه الغازية مع الفطور، ويمتنع عنها طوال اليوم، فنوعية الطعام تتطلب معونة فى الهضم .

– التونة ترهق المعدة لكنها توقظ العقل .

ويظل حامد يردد على رواد المقهى الذين يطلبون طعامًا :

– التونة توقظ العقل .

ويضحك خامشاً رأسه. لا أحد يطلبها.. الأستاذ فقط يداوم عليها كلما حضر. حاول هو أن يفعل.. فاستقاء .

* * *

بدا صغيراً. لا يعطى وجهه أكثر من عشرين عاماً مع أنه يقترب من الثلاثين. يرتدى جلباباً أثناء العمل ويصر عليه، وحين ينتهى من عمله يتزيا كغيره من الناس .

تحرك ودار حول المقاعد وانحنى ثم خطف خطوتين فاهتزت مؤخرته. تندهش.. كيف يكون لفتى فوق العشرين مؤخرة كهذه !

مد يده إلى الشطرنج وقام بنقلة مباغتة وهو يصوب نظرته إلى اللاعب ويبتسم .

– كيف تترك الملك مجروحاً ؟

ويضغط على كتفه فى ود واضح .

– وجد العسكر لحماية الملك .

وحين ينهره اللاعب الآخر ينكمش قليلا ويقول مسترحماً :

– من لا يحمى الملك.. لا يرحم العسكرى الصغير ..

يدرك أن أحـدًا لا يحـمل له شـرا. كلهم يحـتـرمـونه ويتجاوزون اقتحامه .

يتـابع النشـاط الدائر بالمقـهى، لعبـا أو نقـاشًـا، لكنه حويط وماكر فلا تفوته نظرة مدققة أو بسمة عابرة، أو «زغرة» تأنيب ..

تتلصص العـيـون عليـه فـلا تجـده كـأنه جنى.. وإذا استدعاه نداء عال أو عاجل وجدوه أمامهم يمسك طرف جلبابه بين إصبعيه ويتكئ على قدمه اليمنى مميلاً جانبه.. وينتظر .

* * *

تهلل وجهه وصاح فى نبرة مقصودة وهرول إليه فاردًا ذراعيه كأنما يريد أن يحلق بهما. لم تفت العجوز حركته التشخيصية فابتسم ..

حين يجلس الممثل العجـوز يظل يدور حوله، يرقق من صـوتـه، ويلون من أدائه، يخطف العـبــارة أو يمدها ثم يستدير بصينية الشاى فى التفاتة سريعة تخطف قلب العجوز فيرفع صوته زاجرًا :

- خلاص.. فهمت .

رنا العجوز إليه وقال وهو يرشف رشفته الأولى :

- صوتك جميل.. أجربت الغناء ؟

راح حامد يردد فى تطريب مقاطع من مواويل شعبية. استهجن الرواد الصوت فى حشرجاته المرعوشة وطالبوه بالهدوء.. والبعد عن غوايات العجوز ..

فى سرعة بادية ارتكن على جدار وأخرج القلم والنوتة ورمى عينه عليهم وبدا كأنما سيحاسبهم على استهجانهم.

أخرجه الأستاذ من حالته حين أومأ إليه ..

- صوتك يناسب الموالد .

بينهما ود يخجله.. حين أخرج حافظته شمله خجل فأحنى رأسه.

- لن يفيدك العجوز .

وهو يتلقى إكراميته منه، احمر وجهه وارتبك .

سارع الأستاذ فى همس واضح :

- أنت هنا أفضل.. أنت تراهم كلما أحببت .

طرفت عيناه واتجهتا صوب الجانب الآخر وقال ممتنا له :

- هذا كثير.. قد يكون غيرى أولى به ..

* * *

اصطاده الأستاذ وهو يلقى على الجالسين نظرته المتضجرة.. صحفى، فى مجلة محدودة الانتشار.. طلب الشاى والشيشة.. أخرج من جيبه علبة معسل عتيقة، ومبسمًا خاصًا به. توالت السعلات، وارتجافات البدن. انحبس الدم فى وجهه فبدا كالطين المحروق .

حين هدأ.. مال على الأستاذ وهمس وعينه تتابع «حامد» ولا تتركه :

- الولد من الصعيد.. من بلدنا ..

- لاحظت اهتمامك به .

كتم الصحفى الدخان فى صدرة ثم أطلقه فلاح كغيمة هاربة .

- هو.. وغيره.. كانوا يقصدون البيت الكبير.. ونقدم لهم ما نقدر عليه .

أدار رأسه وتأمل وجه الأستاذ ..

- فرص العمل شحيحة.. والصعيد فقير .

وراحا يتحدثان أحاديث عابرة حتى إذا رأى ماسح الأحذية خلع حذاءه.. فاحت الرائحة فأسرع الأستاذ وأدار رأسه .

وكعادته مد كفه فى جيبه وراح يفتش عن نقود يعطيها نظير مسح الحذاء. تباطأ حتى كاد الولد يضيق به. شعر الأستاذ بالحرج فهم بدفع المطلوب.. وقبل أن يمد يده.. أقبل حامد، فجأة ودس يده فى جيبه وأخرج جنيها كاملاً وأعطاه للولد ..

اندهش الصحفى.. كأنه بوغت، واكتسى وجهه بملامح لوم وتأنيب و«زغر» إليه فى حدة .

- لن أدفع أكثر من نصف جنيه .

شد مبسمه، فتوهج الفحم، ونفث دخانه ممطوطًا.. ومبرومًا .

- قيمة المسح معروفة .

اتجه حامد بوجهه كله إلى الأستاذ وتمتم فى همس

مرتعش :

– البركة فى الأستاذ .

وقبل أن يهتز المبسم فى فمه، ويواصل سعلاته الجافة بصوت رفيع ناشف.. كان حامد قد استدار فى بطء.. وعيناه تتنديان بالبلولة .

مـر عليـهم وهم يـأكلون.. الثـوب مـتـسـخ والأصـابع القصيرة طويلة الأظافر ومعتمة. ساحت بقع بلون الزيت وغطت لحم الساق والذارع. رأوه يحف بهم فنادوا عليه ..

أحاط بطبق الطعام الهائل وارتكن إلى ركبته ومد يده. كـانت عـيناه ترمـقـان الوجـوه، والأفـواه، وحـبـات الأرز العالقة.. وانبجاسات عروق اللحم.. انغرزت أصابعه فى رأس الخروف وانتزعت لسانه.

حين فرغوا من الطعام وثقلت أجسادهم واحتاجوا إلى الشاى هب ماسحًا يده فى ذيل ثوبه القصير ومارقًا مع الرجل إلى الموقد ورص الأكواب وأشعل الموقد ..

وهم يرتشفون الشاى ساخنًا سأله كبيرهم :

– أتذهب إلى المدرسة ؟

أومأ بالإيجاب ويده تملأ الأكواب الفارغة .

– أين مدرستك ؟

– أسفل الوادى .

- وكل يوم تقطع الطريق الجبلى إلى هناك !!

- نعم .

هشَّ له الشيخ وعيناه تحتويان المشهد الجبلى، فأسرع الولد وقال وبسمة معلقة فوق شفتيه تبوح بدهشة :

- أنتم فى نزهة !

- نشتاق إلى البر .

- المرء وما يهوى ..

* * *

فضّلت «عوائل» كثيرة النزول إلى الوادى، منهم من عاش فى الحضر.. إخوته ووالده أصروا على البقاء. مسك الجد برمل الجبل وقال: سأدفن هنا. ولما مات حلف الأب أن يدفن مع أبيه. فاستسلموا جميعًا.. وبقوا .

بيت فريد يواجه القادم من أسفل. قابع فى بطن الجبل كأنه نتوء موصول.. اللون أبيض كالح،.. طابق وحيد ونوافذ مغلقة وسياج كتانى يحجب عيونًا مشتاقة.. وفتيات يحلمن بالوادى .

يظل يلهو مع بعيره الصغير ..

ثم ينزوى حرينًا كلما رأى الناس يأتون للنزهة .

يقطفون العَرار، وفروع الأسل ويجمعون الخرزات .

ويمرحون وراء الكرة.. ثم يمضون .

* * *

كان يمسك بخطام بعيره حين رآهم يلعبون ..

أرسل البعير ورمح ..

بدا من بعيد كجرو جبلى يعدو مفسحا بين أقدامه فى عدوات متلاحقة. كمن قريباً منهم وأطل .

رأى الكرة تتطاير كقرص من نبات البُرِّ مغموس فى قدر من السمن ..

قرص لا يصنع إلا ليلة الجلوة.. يأتى بالدفء ويبعث بالشوق .

ظل شوقة يناوشه وهو يراها مقبلة عليه.. تتقافز وتتطاير، وتداعب الحصى فى نطات متباطئة حتى استقرت قريبة من قدميه الحافيتين.. وراح يراوح النظر بينها وبينهم .

أشاروا إليه أن يقذف بها .

جرب، ففلتت قدمه ..

انحنى ومسح بيده عليها ..

ثم انقذفت الكرة منسابة فى الهواء .

كان يمسح على الكرة بحنان بالغ.. يكاد يحضنها قبل

أن يركلها.. ويرسل وراءها عينيه كأنه يودعها .

* * *

قال له الشيخ: أتحب الكرة ؟

ابتسم وزهت عيناه وسكن .

– خذها.. هى لك .

ظل جالسًا على طرف الحصير.. وحذره يطالبه أن ينتظر .

– قم وخذها .

وابتسم أيضًا.. ولم يتحرك .

نهض الشيخ.. أخذها وقدمها إليه .

لم يمد الولد يده، ظل رانيًا ينتظر. كأنما لا يصدق

ركل الشيخ الكرة بقدمه..

ذهبت الكرة بعيدًا ..

أومأوا إليه أن يمضى إليها.. ليأخذها .

ظل ينظر إليهم حتى اطمأن ..

ثم انطلق صائحًا .

بدا كجرو صغير وهو يجرى مفسحًا بين رجليه.. فى عدوات متلاحقة .

كانت العربة الچيب تسير فى بطء ورجَّاتها تحدث ألما فى الأبدان.. تمتد الأيدى فتقبض فى قوة على ما تطوله.. المدق الذى تعبره محاط بتلال رملية متكلسة، طالها نشع البحر، وملوحته. خلا من الاستواء فلاح من بعيد كثعبان صحراوى يتلوى على نفسه، يتكور وينبسط فتحتار متى تستدير أو تتوقف ؟

ترتطم العـربة، وتنزلق. تغـوص.. وتندفع. تتطاير الرمال الساخنة فتلسع الجلود والعيون. يتفادى السائق حفرة معتمة فترتج العربة وتنخطف الأرواح.. تعلو الأصوات محتجة والولد الصغير يبكى فى رجة مفاجئة.. وهو صامت لا يجيب، يحبك غُترته، ويرسل بصره إلى الطريق ممعنا ..

لم يلتفت إلى الصغير، وهو يعابثه.. ولم يرد أصابعه النحيلة وهى تتحسس مقود العربة، يطل بعينيه عليه ثم

ينكمش فى صدر أبيه دافسًا رأسه فى شعره الكثيف .

بدا الأب ممتلئا، والأم ممتلئة.. لم تخف امتعاضها وهى تمسك بالصغير فى كل رجة، البدن يرتج، والشعر يتطاير.. لم تكن قد لبست العباءة بعد، ولم تكن قد سترت شعرها، فنالها من العيون ما كدرها .

ابتعد السائق بالعربة، ودخل السهل الرملى الممتد. علا حتى لامس جانب التل ثم استدار ونزل فلاح البحر ساكنًا، والطيور الشحيحة تحوم.. ثم تهوى .

* * *

يجابهك الفضاء الأصفر، وتنسال الحرارة انسيال موجة مراوغة، والقيظ يحتويك، تأخذك الخيالات المرتعشة فتراها أشكالاً تتجسد، تقطع عليك الرؤية، وتتبدى لك وجوها، وأحصنة، أظلافًا وذيولاً، أجسامًا، وأدمغة.. وتروح تمعن النظر، من يدرى فقد تمسك به. يشاغلك حتى إذا اقتربت فر كالسراب.. فيأخذك شعور باللاجدوى، وأنك عاجز أمام انفساح كونى يحتويك بصفرته وأشباحه، وشمسه التى تذيب الحديد. كنت آمنا

وساكنًا كالوداعة. أغواك قلبك فانصببت كالعاطفة، تسربلت به واحتفى قلبك.. ترنو إليك فى ابتهال أن تأخذها معك.. وكنت تزهو، والوجه ينبسط، والعين تبتهج.. تناجيك آمرة، وهى ترى قلبك على وجهك.. دثرنى بدمك.. وأنت ترى الممتلئة تذيب ولدها فى جلدها.. تجالسك البنت التى شقت الجلد وتسربت دما.. تدثرها بدمك وتستعطفها أن تكف عن ولوجك ..

* * *

باغتته انحدارة مفاجئة.. فقبض فى قوة على مقعده ..

لم تمنع التلالُ وجه الشمس، ولا حجبت لظاها.. لم تستدر الشمس بعد.. فاختار السائق براحًا رمليا، تناثرت فيه أشجار من الأسل، ونباتات صحراوية فى حضن التل.. الفروع شحيحة الورق تُلقى بظل رفيع كالرمح لا يمنع القيظ، لكنه ظل على كل حال.. وهو غاية المنى فى صحراء لا ينقطع لهيبها .

توقفت السيارة على جرف كثيب رملى ..

امتدت الأيادى بملاءة قطنية داكنة، وربطت أطرافها

بين فروع الشجر، فسمحت بمساحة من الظل أشاعت بعضا من البهجة وأتاحت راحة مختلسة لأبدان متعبة.

* * *

كان المسافرون خليطا من المتعاقدين وأبناء البلاد.. قل الحديث بينهم أثناء السفر، لكنهم تقاربوا فى جلستهم .

لم يكن بوسعه فعل شىء، فأسند ظهره إلى جذع شجرة خشنة القشرة، وراحت عيناه ترنوان فى كسل كالخدر .

تنحى الرجل الممتلئ قليلاً.. وفرش سجادة صغيرة جلست عليها امرأته. كساها ثوبها الواسع فاحتجبت، أدخل يده فى الحقيبة وأخرج منديلا زهرى اللون. فردته وأدارت ظهرها وفرشته على رأسها وانسدل حتى الصدر فاستتر الصغير وهو يرضع. أخرج السائق «چيرك» المياه، وفتح غطاء العربة وصب قليلا ..

واستدار، ثم أخرج كرتونة صغيرة، فتحها ورص الشاى، والسكر، والأكواب.. وأدار رأسه كأنه يتلفت ..

لم تفته حركته وهو يقتعد حجرا رمليا. الوحيد من

الركاب الثمانية الذى يرتدى العقال، فكه وعلقه بفرع شجرة وعاود النظر ثم نهض. وضع طرف ثوبه فى تكة سرواله الطويل و«نتش» فرعين جافين، هشمهما، وحفر حفرة صغيرة ورص على فوهتها حجرين.. وراح يشعل النار ويضع كوز الشاى ..

* * *

أخذته الرمال المتحركة كالموج وسار قليلا، اعتلى كثيبًا، وشاهد الرمل المبسوط بدرجاته، وتعجب كيف تصنع الرياح الخفية من حصيرة الرمل شكلا جميلا ومدهشًا. ثمة خيمات متناثرة قرب بطن التل، وخيمة ممتدة أرخت حوائطها، ولم يعد منها غير سقف يسترها.. وغنمات هاجعات تحت أشجار الأسل، وفى جنبات التل..

تخفف السائق من ملابسه، وبدا سرواله هادلاً، ولحيته تحتجز قطرات مياه شحيحة، وجدائل شعره تتلوى مغبرة، وسمانة ساقه ككدمة محتقنة. يلوك السواك فى حنية الفم، ويبتسم .

تقدم إليه وناوله كوب الشاى.. رآه ينشغل بالخيمة المفتوحة فقال فى عجلة :

– المرة القادمة لن تراهم .

لاحظ عليه دهشة ممزوجة بالحزن ..

– لا تندهش.. حياتهم ترحال .

تناول كوب الشاى وامتن له كثيرًا .

– لست وحدك !

نظر إليه، وتعجب أن يظل صامتًا.. كأنه فى غفوة ..

– تتأثر سريعًا !

وقدم له قطعة من خبز التميس .

– كل من سافروا معى دمعت عيونهم .

وهو يستدير نحو غطاء العربة، ابتسم، وغمز بعينه.

– لست وحدك .

* * *

لاحت الشعاعات كأنها أسلاك صفراء منفلتة، وعيناك تدوران فى الفضاء المرصود بقنن الجبال النائية كأنها خط معتم على حدود الأفق، وتتعجب.. كيف تستمر الحرارة لاهبة وكاوية وأكتوبر ينسحب آفلاً!! وكيف لم

تأبه لفزعة الرجال، وظللت مكانك على كثيبك الرملى بخبزك اللدن وشايك الكهرمان ..

غابت عنك الأذن فلم تسمع إلا «وشيشًا» يذكرك بحفيف الشجر حين يكتنز بالورق .

وأنت منبهر بالفضاء ومستمع إلى وشيشك المخضر تجلَّى لك فأدمنت الرنو غافلاً.. فردت كفيك، واستقبلتها فى راحتيك «أحبك» .

تكاد المياة تصطفق وتعلو حتى تلامسك، وأنت قابض عليها والمقهى الممتد على ضفاف النيل يعبق برائحة وردات متناثرة.. وقلبك يخطفك، فتدفعه ضاغطًا كى لا يفضحك.. ولسانك لابدُ لا يطاوعك..

وأنت تشرح قصائد الغزل ظللت تسرد مفردات الحب، والعشق، والجوى، والوجد، والنوى، وتسرف فى المعنى، وترنو إلى المغزى.. فلم يفتك الوجه المرتعش، ولا الوهج الذى خطف بصرك فأعماك،.. وظللن ينتظرن ..

لو اكتشفن أنك لم تعرف قلق المحب، وأنك بلا تجربة لانصرفن عنك، وفقأن عينك المحدقة.. مع أن قلبك طرى كقلوب المحبين .

لم تحرقك التجربة، فبدوت فى هواك كالمحايد ..

تدارى شعورك فى صدرك، مع أنك خير من يتذوق عذاب العشراء وحبهم.. أيمنعك الحياء.. أم ترى البوح ضعفًا!! فُك نفسك، واخلع عنك طلسمها.. وبُحْ. هل تطوى السماء نجومها إذا قلت.. أحبكِ ؟!

أتظن أن الله خلق القلب عبثًا !!

تتلفت كـأنك تخـشى أن تكون قـد طارتْ وحـومتْ. والقلوب مبثوثة على الأرائك، وفوق المناضد - خرجت من صدورها - وزخات الدماء الصاهدة تحيط بك ..

وأنت تحب، وتخجل. أفى الحب ملام !!

وكأنما تعانى من ندبة مدممة.. فتحت قلبك وصحت :

- وأنا أحبك .

وانتفضت - أمامك - قائمة.. فردت ذراعيها.. كأنما تريد للصوت المنفلت منك أن يعود إليك.. تحوطه بدفئك وبكت وهى تهمس فى تمتمة كالصلاة :

- هى.. تعويذتى التى تحرسك .

هل وصلك الحب فداريت دمعة تقف على حافة العين!!

وهل آنسك فأنساك ما حدث !!

المحتــوى

مــوجــة.. ووردة ٥
البــورصــة ١٧
الــولــيّ ٢٩
ترمــيم القلب ٤١
رجفة مباغتة ٥٣
حــلــم ٦٣
الهـــرة ٧٣
الومــضــة ٨٣
خفقة الضـوء ٩١
البـــدين ٩٩
زنــزبيـل ١٠٩
حـــذاء ١٢٣
الــكــرة ١٣٥
لست وحـــدك ١٤١

صدر للمؤلف

• الإبداع

- الخروج إلى النبع – رواية – مركز الحضارة ط٢ .
- السيد الذى رحل – رواية – هيئة الكتاب ط٢ مكتبة الأسرة .
- الضوء والظلال – رواية – قصور الثقافة ط٢ نادى القصة – الكتاب الفضى .
- حرث الأحلام – رواية – هيئة الكتاب .
- من يقتل الحب – قصص قصيرة – هيئة الكتاب .
- صدأ القلوب – قصص قصيرة – هيئة الكتاب .
- البنات والقمر – قصص قصيرة – هيئة الكتاب .
- ذات الشعر المنسدل – قصص قصيرة – هيئة الكتاب .
- المدار – مسرحية – هيئة الكتاب .
- النيل الصغير – أطفال – هيئة الكتاب .
- أنا وكلبتى – أطفال – هيئة الكتاب .
- أنا لولو – أطفال – قطر الندى – قصور الثقافة .

• دراسات أدبية

- نظرات فى قصص القرآن ٣ أجزاء – رابطة العالم الإسلامى .

- من جماليات التصوير فى القرآن جزآن - رابطة العالم الإسلامى .
- صورة المرأة فى قصص القرآن - مكتبة الحلبى .
- القصة فى القرآن - قصور الثقافة .
- محمود البدوى عاشق القصة القصيرة - هيئة الكتاب .
- الفن والبساطة.. قراءة فى القصة القصيرة عند ثروت أباظة - دار الشعب .

• قراءات نقدية

- قراءة فى القصة القصيرة - هيئة الكتاب .
- الرؤى والأحلام - قراءة فى نصوص روائية - هيئة الكتاب .
- الذات والموضوع - هيئة الكتاب .

• صدر حديثا

- أعمال كاملة ج١ - هيئة الكتاب .
- أعمال كاملة ج٢ - هيئة الكتاب .
- القصة فى القرآن.. مقاصد الدين وقيم الفن - دار قباء .
- السرد فى مواجهة الواقع.. قراءة فى القصة السعودية - مركز الحضارة .

صدر مؤخرا عن (أصوات أدبية)

٢٦٨- مكاشفات شخصية .... شعر : بهاء جاهين

٢٦٩- أقانيم .... قصص : اسماعيل البنهاوى

٢٧٠- مرايا الذات الأخرى .... رحلة : صبرى حافظ

٢٧١- ديوان غزالى .... كابتن غزالى

٢٧٢- الصنم .... رواية : أشرف الخمايسى

٢٧٣- منازل القمر .... قصص : سُمية رمضان

٢٧٤- مواقيت البهجة .... قصص : عزت القمحاوى

٢٧٥- عضم خفيف .... شعر : سعدنى السلامونى

٢٧٦- حافة الود .... رواية : نبيل نعوم

٢٧٧- صانع الصدمات .... قصص : أسامة خليل

٢٧٨- السبعة .... شعر : عادل عزت

٢٧٩- عشرين سنة على سلم المترو .. شعر : حمدى عبد العزيز

٢٨٠- ضرورة الكلب فى المسرحية... شعر : جرجس شكرى

٢٨١- نجع السلعوة .... رواية : أحمد أبو خنيجر

٢٨٢- طائر الفخار .... شعر : محمود نسيم

٣٨٣- كائنات هشة لليل .... رواية : صلاح والى

٢٨٤- قبض الريح .... قصص : شحاته عزيز جرجس

٢٨٥- أغادر جسدى .... شعر : أحمد السواركه

٢٨٦- بعدين .... شعر : صلاح الراوى

٢٨٧- الوفاة الثانية لرجل الساعات..... رواية : نورا أمين

٢٨٨- عبير الكمنجات .... شعر : عزت الطيرى

٢٨٩- نتهجى الوطن فى النور .... شعر : سمير الفيل

٢٩٠- رائحة النعناع .... رواية : حسين عبد العليم

٢٩١- امرأة يروق لها البحر .... شعر : عبد الناصر هلال

٢٩٢- قوة الحقائق البسيطة............ شعر : عزت عامر

٢٩٣- شهيد الوطن ..... شعر : متولى عبد اللطيف

٢٩٤- الكوشة .... رواية : أمين ريان

٢٩٥- عالم تانى .... شعر : عمرو حسنى

٢٩٦- جاليرى يعرض صوراً مسروقة...... شعر : أحمد مرسى

٢٩٧- حديث الحجرات .... قصص : مجدى حسنين

٢٩٨- أبناء الخطأ الرومانسى.............. ياسر شعبان

٢٩٩- بيت النجار .... عبد الحكيم حيدر
٣٠٠- موسيقيون لأدوار صغيرة.......... فتحي عبد الله
٣٠١- بدرية الإسكندرية .... حسني بدوي
٣٠٢-المسروق فضاؤه .... يوسف وهيب
٣٠٣- طريق للحفاة .... محمود قرني
٣٠٤- - قبل وبعد .... توفيق عبد الرحمن
٣٠٥- حياة عادية .... محمد صالح
٣٠٦- أحلام بدرية .... علي الشوباشي
٣٠٨- الحب والحزن والحنين .... سامي فريد
٣١٢- أحلام محرمة .... محمود حامد
٣١٣- ذلك البيت الذي تنبعث منه الموسيقى .... رنا عباس
٣١٤- إنه الرابع من آل مستجاب .... محمد مستجاب
٣١٥ - العصافير تنفض أغلالها .... حسن فتح الباب
٣١٦- عشاء برفقة عائشة.......... محمد المنسي قنديل
٣١٧- أقاليم اللهب ومرايا القلب الأخضر... محمد الشهاوي
٣١٨- جليس لمحتضر .... فريد أبو سعدة
٣١٩- ١٩٩٩ .... شعبان يوسف

٣٢٠- رسام الأرانب.................... أحمد الشيخ
٣٢١- طريق الحرير.................... يسرى خميس
٣٢٢- كنز الدخان .... فخرى لبيب
٣٢٣- نعم.. أنا لص .... مختار العطار
٣٢٤- الوقوف على الأعتاب ....يحيى شرباش
٣٢٥- كأعمدة الصوارى .... سمير درويش
٣٢٦- شباك مظلم فى بناية جانبية .... فؤاد مرسى
٣٢٧- مرايا عطش.................... عماره إبراهيم
٣٢٨- سيف الجلاله.................... أحمد الصعيدى
٣٢٩- موت قارع الأجراس .... محمد جبريل
٣٣٠- رجلى أتقل من سنة ٦٧ .... مسعود شومان
٣٣١- كائنات ليل سرمدى .... خالد السروجى
٣٣٢- صمت الكهنة .... صبحى موسى
٣٣٣- معصية حرة..................... مشهور فواز
٣٣٤- النشيدة .... علاء عبد الهادى
٣٣٥- اللورد شعبان .... عبد الرشيد محمودى
٣٣٦- أحلام مقصوفه .... رجب الصاوى
٣٣٧- تجليات ليلى .... فتحى فرغلى

٣٣٨- تحت سماء أخرى .... محمد سليمان

٣٣٩- هذه الزوايا وفمي .... عزة بدر

٣٤٠- حدث ويحدث .... نجلاء محفوظ

٣٤١- رتق الشراع .... فؤاد قنديل

٣٤٢- مديح العالية .... السماح عبد الله

٣٤٣- أشياء تخصنا .... خيرى شلبى

٣٤٤- السيد القط.. وآخرون .... محمد سليمان

٣٤٥- النخلة .... محمد الشرقاوى

٣٤٦- الطيور .... مصطفى نصر

٣٤٧- بيت الخلفة .... محسن يونس

٣٤٨- مريم تتذكر .... أحمد عنتر مصطفى

٣٤٩-أثر البكاء .... فتحى عبد الله

٣٥٠-طريق مفتوح ف ليل أعمى .... طاهر البرنبالى

٣٥١- الغنا ف عز السكون .... محمود الشاذلى

٣٥٢- ظل ليس لك .... عماد غزالى

٣٥٣- عرض مجانى للجميع .... أحمد الشيخ

٣٥٤- عرس النار .... أحمد سويلم

٣٥٥- قصاقيص الهوى .... محمد قطب

العـــدد القـــادم

* كوارث الفرح ومخاطر السعادة........ ميلاد زكريا يوسف

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)